الألف كتاب
الثاني
١٤٤

برتراند راسل

السلطة والفرد

ترجمة: د. لطفية عاشور



الهيئة ... للكتاب

السلطة والفرد

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

لمياء محرم

برتراند راصل

السلطة والفرد

ترجمة

د. لطفية عاشور



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

Authority and The Individual
Bertrand Russel

الفهـــرس

الصفحة

مقـدمة الترجمـة

أقبلت على قراءة هذا الكتاب ثم ترجمته تحت تأثير موضوعه الشيق والمهم بالنسـبة لمجتمعنا وظروفنا الحاضرة ـ نفس أهميته لأى مجتمع سابق أو لاحق ٠

وهو سادس كتاب لبرتراند راصل المفكر العظيم والأديب والعالم وداعيـة السلام ـ الذى استمر عطاؤه القيم والغزير فى مختلف فروع المعرفة قرابة ثمانين سنة ٠

وقد ظهر الكتاب فى منتصف القرن الحالى فى انجلترا ، أولا على صورة محاضرات للأذاعة البريطانية ـ ويقول التقديم للكتاب « واذا كانت هذه المحاضرات مفيدة لموضوع ساعتها عند بدء تقديمها فلابد وأن تكون كذلك وأكثر بالنسبة لوقتنا الحاضر وظروفنا الراهنة » ٠

ويهدف الكتاب كما يقرر راصل للتوصل الى امكانية « الجمع بين قدر من السبق الفردى الضرورى لكل تقدم ، وقدر من التماسك الاجتماعى اللازم لأجل البقاء » ٠

ورغم أن راصل غنى عن التعريف فلابد من نبذة عن حياته الحافلة المعاصرة : فقد ولد سنة ١٨٧٢ وتوفى سنة ١٩٧٠ فى الثامنة والتسعين ٠ وكان فيلسوفا وأديبا وعالما ، أثرى المعرفة الانسانية ، وانتشر عطاؤه فى أنحاء العالم على شكل كتب ومقالات وعلم النفس والاقتصاد والسياسة والرياضيات ٠٠٠ الخ وزادت مؤلفاته عن الخمسين ٠ وكان آخرها كتابه **تحليل العقل** وهو مكتوب بجودة فائقة رغم أن مؤلفه كان قد جاوز الخامسة والتسعين ٠

وقد ولد فى ويلز كحفيد لايرل راصل الأول ، وتلقى تعليما خاصا ، ثم التحق بجامعة كيمبردج ، وعين بعد تخرجه فى كلية ترينيتى ، ثم انتقل الى لندن واستقر بها ليتفرغ للعمل الاجتماعى والسياسى ـ فكان له نشاط برلمانى ـ كما كان من دعاة السلام ، وكان عضوا فى لجنة المائة لمناهضـــة التسلح الذرى ـ واشترك مع أينشتين فى التحذير من الأسلحة الذرية والنووية ، والدعوة لنبذهـا ٠ وقد حـكم عليه لذلك بالسجن والغرامة مرتين ، كانت الأخيرة وهو فى التسعين من عمره ،

وبيعت مكتبته للوفاء بالغرامة • ولم يلوه كل هذا عن الاستمرار فى دعوته لافناء الأسلحة الذرية والنووية ــ تلك الدعوة التى تحققت أخيرا بعد وفاته بربع قرن تقريبا •

وكانت آراؤه وحياته وعلاقاته الخاصة غير تقليدية ، أثارت اعتراض المجتمع المحافظ • وقد تزوج ثلاث مرات وطلق مرتين ــ وأصبح أبا لأول مرة بعد الخمسين ، ورزق بولدين وبنت ، أحبهم كثيرا وتفانى فى تربيتهم وتعليمهم ــ حتى لقد أدار مدرسة حديثة لتعليمهم مع آخرين • وقال راصل ان التعليم السليم يجب أن يشجع الأطفال على التفكير المستقل وعلى الابداع ، وأن يتيح لهم مزيدا من الحرية • وعندما كبر أولاده قرر أنه يفضل تعليمهم فى جامعة شيكاغو على أوكسفورد أو كيمبردج • وقد ورث ابنه لقب ايرل بعد وفاة والده ، الذى كان قد ورثه بعد وفاة أخيه سنة ١٩٣٩ ، ولكنه لم يستعمله •

ومن مفارقات حياة راصل أنه رغم كل ما لاقاه من معارضة ومحاكمة وسجن ، الا أنه نال أعلى درجات التكريم والتقدير • فبالاضافة الى لقب ايرل حصل على وسام الاستحقاق سنة ١٩٤٤ ، وعلى جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٥٠ ــ وكان قد عمل فى الجامعة ولكنه فصل منها بسبب سجنه السياسى ــ وألف وهو فى السجن كتابه **أسس الرياضيات** وهو مرجع مهم •

وقد حاضر فى جامعات فرنسا والولايات المتحدة والصين ، وزار الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٢٠ ، ولكنه عبر بعد عودته عن امتعاضه الشديد ، لما وجده هناك من « بيروقراطية مستبدة » على حد قوله •

وكان راصل عضوا فى حزب العمل ، ولكنه مزق بطاقة عضويته اعتراضا على دور الحزب فى حرب فيتنام • وقبل وفاته بيوم واحد فى فبراير سنة ١٩٧٠ شجب اعتداء الطيران الاسرائيلى على مصر ــ بعبارات واضحة ومنطقية وعادلة •

وتكون رسائله العديدة لصديقته أوتولين مجموعة لها طبيعة العمل الفنى ــ قد استعملت فى كتابة سيرته بعد وفاته ــ كما كتب هو سيرته الذاتية التى نشرت بعد وفاته ــ وقرر فيها أن وفاة والديه وهو فى سن مبكرة جعلته حساسا وقلقا ، وفى حاجة ماسة للاستقرار ولقاعدة آمنة •

وقد صادف راصل صعوبات مالية فى بعض فترات حياته ــ وحقق عمله بالصحافة والمحاضرات بالولايات المتحدة دخلا أوفر مما حققه عمله فى التأليف الأكاديمى •

ويتضح من كل ما تقدم أن راصل كان مثالا للفردية من حيث تطلعه للسبق والمبادرة وحرية الرأى ـ وأنه عانى كثيرا من السلطة ـ كلما تعارض نشاطه السلمى الانسانى مع سعيها للتفوق والتماسك والصمود . ولهذا فكتابه **السلطة والفرد** ليس فقط نتاج بحث وتفكير ـ بل هو أولا نتاج تجارب شخصية .

ورغم صغر الكتاب نسبيا فانه يقدم كما وفيرا من الحقائق العلمية والآراء الصائبة عن مختلف فروع المعرفة والأنشطة البشرية . ويتناول المجتمع البشرى من كل نواحيه وفى فترات نموه وتطوره . ويخلص من كل هذا الى قرارات رشيدة ومتزنة ونظرة مستقبلية متفائلة .

ويقول راصل عن خطته :

« وسأبدأ بالحوافز البشرية التى تجعل التعاون الاجتماعى ممكنا ... وبعد ذلك سأبحث درجة وقوة التماسك الاجتماعى فى أزمنة وأماكن مختلفة ، لنصل لمجتمعات العصر الحاضر ـ واحتمالات مزيد من التطور فى المستقبل القريب ... وبعد ذلك ... سأتناول الجانب الآخر فى حياة الانسان ... وأعنى بالتحديد السبق الفردى ، مع بيان الدور الذى لعبه فى حلقات التطور البشرى المختلفة ، والدور الذى يلعبه فى الوقت الحاضر ـ والامكانات المستقبلية ، للكثير أو القليل منه فى الأفراد والجماعات .... وأخيرا سأبحث كمسألة أخلاقية ، كل علاقة الفكر والجهد والتصور الفردى بسلطة المجتمع » .

ويورد راصل فى بحثه حقائق مهمة وطريفة عن التطور البشرى بيولوجيا منذ آلاف السنين ، والى دور الحوافز الهمجية الموروثة فى السلوك البشرى حتى عصرنا الحاضر ـ والى أسباب الحروب وتطورها ـ والى دور الخوف داخليا أو خارجيا كعامل اندماج وطاعة ـ والى أثر العقيدة والقومية فى التماسك والتفوق . كذلك يقرر راصل :

« نحن نعلم أن أى حياة تحيد ، أكثر من اللازم ، عن الدافع الطبيعى ، لابد وأن تؤدى الى حالات توتر ، يمكن أن تتساوى فى مساوئها مع ما كان يحتمل أن ينشأ من مساوىء نتيجة لاشباع الرغبات المحرمة » .

« والناس الذين يعيشون حياة غير طبيعية ... يمكن أن يضمروا الحقد والحسد وسوء النية ، وكل ما يتعارض مع الخير ... » .

ويضيف راصل بعد ذلك :

« وأثناء محاولة ايجاد حل لهذه المشكلة ، علينا أن نتذكر دائما ، أنه بالرغم من أن طريقة حياتنا وقوانيننا ، ومعرفتنا ، قد تعرضت جميعها

لتغييرات جذرية ، فان غرائزنا للخير والشر تبقى (الى حد كبير) كما كانت ، عندما وصلت أمخاخ أجدادنا الى حجمها الحالى فى الوقت الحاضر » (وكان قد أوضح قبلا أن ذلك قد حدث منذ مليون سنة تقريبا !!) ·

ويحذر راصل قائلا « ··· لا يجوز لنا أن نحاول الغاء التنافس ، ولكن علينا فقط أن نعمل على ألا يتخذ أشكالا تؤدى الى اصابات بالغة » ·

ويعلن راصل فى أسى « كان من سوء الطالع أن تقدم الجانب الهدام للتكنولوجيا ، بسرعة أكثر من الجانب البناء ··· » ·

وبعد فالكتاب مشوق ودقيق وجدير بمؤلفه العظيم ، وفى متناول كل مستويات القراء · ولو أن ادراك مؤلفه العميق والغزير يجعل بعض عباراته طويلة ومركبة ، وقد شكل هذا الأمر صعوبات جمة فى الترجمة ، كما أنه يتطلب قراءة متأنية ومدققة ·

كذلك يشير المؤلف الى شخصيات وبلاد وأماكن ونظم حكم وآثار معروفة لقرائه فى الغرب ـ وقد حرصت على تبسيطها وتوضيحها بقدر الامكان ، وأضفت ايضاحات بالهوامش لهذا الغرض فى آخر الكتاب ·

د · لطفية عاشور

كلمــة الناشر

يتكون هــذا الكتاب من محــاضرات برتراند راصــل المفكر والكاتب الكبير في منتصف القرن الحالي في انجلترا • واذا كانت فائدة هذه المحاضرات موضوع الساعة عنــد بدء ظهــورها ، فلابد وأن تكــون كذلك وأكثر بالنســبة لوقتنا الحاضر وظروفنا الراهنة •

(ب) السلطة والفرد :

في عالم في منتهى التعقيد والخطورة تصبح كل فضائل السلطة من تخطيط وترو وعقلانية ــ من الضرورات القصوى لتحاشي الفوضى والدمار • ومع ذلك فهــذه الفضائل ــ من وجهة نظر الفرد ، الذى يحتاج الى التلقائية والتمجيد ــ تعنى موتا روحيا مطردا • وكيف يمكن التوفيق بين الاثنين ؟

ويناقش برتراند راصل أسس القوانين البشرية التى يصبح فيها التحكم مناسبا اذا تقاسمته الأغلبية ــ وتلك التى يجب فيها ترك العنان للمبادرة الفردية ، في سبيل تحــاشى اللا مبالاة والركود • ويحتوى الكتاب على محاضرات ريث ــ هيئة الاذاعة البريطانية سنة ١٩٤٨ ــ وكانت الأولى في تلك السلسلة المتميزة • وهى ــ مثل أغلب أعمال راصل ــ تتفق مع احتياجات اليوم ــ كما كانت أو أكثر عندما ظهرت أولا •

(ج) برتراند راسل

السلطة والفرد

محاضرات ريث ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩

في يوليو سنة ١٩٤٧ أعلن سير ويليام هالى ـ المدير العام لهيئة الاذاعة البريطانية ـ انشاء سلسلة سنوية لمحاضرات مذاعة تعرف باسم « محاضرات ريث » .

ففى كل سنة توجه الدعوة لاحدى السلطات المعترف بها ـ فى مجال معين : الاجتماع والأدب والتاريخ والشئون العامة والاقتصاد ، لاجراء دراسة أو بحث مبتكر ، عن موضوع معين ، وتقديم النتائج للمستمعين فى سلسلة اذاعية .. وتستهدف هذه الاذاعات ـ ليس فقط ـ أن تكون قمة مجهود هيئة الاذاعة البريطانية كل سنة فى مجال سلسلة الأحاديث ، بل انها استهدفت أيضا ـ أن تصبح مؤسسة قومية قيمة ، تضيف الى مجمع المعرفة وتحفز على التفكير فى دائرة مطردة الاتساع .

وعندما تحدث سير ويليام عن قرار مديرى هيئة الاذاعة البريطانية اطلاق اسم لورد هيث على المحاضرات المذكورة ، قال : « هناك اسم يتصدر كل ما عداه من الأسماء فى تاريخ الاذاعة البريطانية . فمازال من الواجب تقييم ما يدين به سكان هذا البلد ـ تقييما سليما ـ لفلسفة الرجل الذى قاد الاذاعة البريطانية ـ ففكرته عما يجب أن تسعى اليه الاذاعة ، وعن المثل التى يجدر بها خدمتها ، والمستويات التى يجب عليها بلوغها ـ كانت من أعظم الأحداث الاجتماعية فى عصرنا ـ لهذا فليس هناك أوجب من أن نقرن اسم أكثر المجهودات الاذاعية جدية باسم مؤسسها » .

(ء) ملحوظة تقديمية :

عند اعداد هذه المحاضرات أفدت من المساعدة القيمة من زوجتي باتريشيا راصل ، ليس فقط فيما يختص بالتفاصيل بل أيضا بالنسبة للأفكار العامة وتطبيقها على ظروف وقتنا الحاضر •

برتراند راصل

- ١ -

التماسك الاجتماعي والطبيعة البشرية

ان المشكلة الأساسية التى اقترح بحثها فى هذه المحاضرات هى كيف يمكننا الجمع بين قدر من السبق الفردى الضرورى لكل تقدم وقدر من التماسك الاجتماعى اللازم لاجل البقاء •

وسأبدأ بالدوافع البشرية التى تجعل التعاون الاجتماعى ممكنا • وسأفحص أولا : الأشكال التى اتخذتها هذه الدوافع فى المجتمعات البدائية جدا ، ثم التعديلات التى استحدثتها المنظمات الاجتماعية فى تغيرها التدريجى فى الحضارة الزاحفة • وبعد ذلك سأبحث درجة وقوة التماسك الاجتماعى فى أزمان وأماكن مختلفة لنصل لمجتمعات العصر الحاضر - واحتمالات مزيد من التطور فى المستقبل القريب •

وبعد هذه المناقشة لقوى التماسك فى المجتمع سأتناول الجانب الآخر فى حياة الانسان فى المجتمعات ، وأعنى بالتحديد السبق الفردى - مع بيان الدور الذى لعبه فى حلقات التطور البشرى المختلفة ، والدور الذى يلعبه فى الوقت الحاضر ، والامكانات المستقبلية للكثير أو القليل جدا من السبق فى الأفراد والجماعات •

وسوف أستطرد بعد ذلك الى احدى المشكلات الجذرية فى وقتنا الحاضر - وهى بالذات الصراع الذى استحدثه النظام الحديث بين التنظيم والطبيعة البشرية ، أو - بتعبير آخر ، انفصال الدافع الاقتصادى عن حوافز الابداع والتملك • وسأبحث ما يمكن عمله نحو حل هذا المشكل ، وأخيرا سأبحث كمسألة أخلاقية كل علاقة الفكر والجهد والتصور الفردى بسلطة المجتمع •

ففى كل الأحياء الاجتماعية ، بما فيها الانسان ــ يوجد للتعاون والاتحاد في المجموع ، بعض الأصل فى الغريزة ــ وهذا موجود بأكمل صوره فيالنمل والنحل ــ وهى المخلوقات التى يبدو انهـا لا تتعرض أبدا لاغراء الاتيـان بتصرفات لا اجتماعية ــ ولا تنحرف أبدا عن الولاء الثـابت للعش أو الخلية • ولنا أن نشعر بالاعجاب ــ الى حد ما ــ بهذا الولاء نحو الواجب العام • ولكن ، لا ريب أن لهذا سلبياته ، فالنمل والنحل مخلوقات لا تنتج أعمالا فنيـة عظيمة ــ ولا تقـوم باكتشافات علمية ، ولا تؤسس ديانات تنادى بالاخوة بين كل النمل ، فحياتهم الاجتماعية فى الواقع آلية ــ محددة وثابتة • ونحن نرغب فى أن يكون للحياة البشرية عنصر التمرد ، اذا كان هذا يساعد على تحاشى مثل هذا الركود التطورى •

كان الانسان البدائى نوعا ضعيفا ونادرا ، بحيث كان بقاؤه فى البداية غـير مستقر • ففى احـدى الحقبات نزل آباؤه من الأشجار ، وفقدوا مزايا اصابع القدم المخلبيـة ، ولكنهم اكتسبوا مزايا الأذرع والأيدى • وبهـذه التغييرات اكتسبوا مزايا عدم الاضطرار فيما بعد للحياة فى الغابات •

ولكن من جهة أخرى ، جعلت المسـاحات المترامية التى انتشروا فيها كميات الطعام أقل وفرة عما كانـوا يتمتعون بها فى أدغال أفريقيا الاستوائية • ويقدر سـير آرثر كيث احتيـاجات كل فرد بدائى واحـد بميلين مربعين من الأرض لتزويده بالطعام ــ بينما يقدرها آخرون بأكثر من ذلك •

واذا بنينا حكمنا على القردة الشبيهة بالانسـان وأكثر المجتمعات البـدائية التى عمرت حتى العصـور الحـديثة ، لاستنتجنا أن الانسان الأول قد عاش فى مجموعات صـغيرة ليست أكبر كثيرا من الأسر ، مجموعات يمكن تقديرها تخمينا بين خمسين ومائة فرد •

ويبدو أنه كان هناك قدر ملموس من التعاون داخل كل مجموعة ــ ولكن كان هناك عداء تجاه كل المجموعات الأخرى من نفس الجنس ، كلمـا حدث تلاحم بينهم • وطالمـا بقى

الانسان نادرا كان التلاحم مع المجموعات الأخرى عرضيا ــ وفى أغلب الأحيان ــ غير ذى أهمية • وكان لكل مجموعة اقليمها الخاص ــ وكانت الصراعات تحدث فقط على الحدود•

ويبدو أن الزواج ، فى هذه الآونة المبكرة ، كان مقصورا على أفراد المجموعة الواحدة ، بحيث أصبح هناك قدر كبير من توالد الأقارب ، ومالت التنوعات الى الاستمرار مهما كان مصدرها •

واذا زادت مجموعة ما في العدد ، بدرجة أصبح معها اقليمها غير كاف ، صار من المحتمل أن تدخل فى صراع مع مجموعة مجاورة • وفى صراع كهذا يمكن لأى ميزة بيولوجية اكتسبتها احدى المجموعات المتوالدة ، دون الأخرى، أن تحقق لها النصر ــ وبناء عليه ــ أن تساعد على استمرار تنوعها المفيد •

ولقد أورد هذا كله سير آرثر كيث باقناع تام • فمن الواضح أن أجدادنا الأوائل ، الذين كانوا بشرا بالكاد ، لا يمكن أن يكونوا قد تصرفوا بناء على سياسة مدروسة ومقصودة ، بل لابد أنهم حفزوا بتركيب غريزى ــ التركيب المزدوج للصداقة داخل القبيلة والعداء لكل الآخرين •

ولما كانت القبيلة البدائية صغيرة الى هذا الحد ، فقد كان كل فرد كفيلا بمعرفة الأفراد الآخرين معرفة وثيقة ، بدرجة أن يصبح شعور الصداقة ، قابلا للتوسع المتبادل ، مع كل تعارف •

ولقد كانت الأسرة ومازالت ــ أكثر المجموعات الاجتماعية تماسكا بالغريزة ــ فالأسرة تصبح لا غنى عنها بحكم طول فترة الطفولة ، ولأن أم الأطفال تصادف عوائق جمة فى مهمة جمع الطعام • وكان لهذا الظرف الأثر فى جعل الأب عضوا لا غنى عنه في مجموعة الأسرة ، سواء فى ذلك بين البشر أو بين أغلب أنواع الطيور • وكانت مرحلة الانتقال بين الأسرة والقبيلة الصغيرة ــ بطبيعة الحال ــ مرتبطة بيولوجيا ، بحقيقة أن الصيد ، يمكن أن يصبح أكثر

كفاءة ، اذا جرى تعاونيا ، ولابد أن تماسك القبيلة ، قد تزايد وتطور منذ وقت بعيد ، نتيجة لصراعاتها مع القبائل الأخرى .

وقد أصبحت الآن ـ البقايا المكتشفة للانسان الأول ونصف الانسان ، عديدة بدرجة كافية لاعطاء صورة واضحة، الى حد كبير ، لمراحل التطور ـ بدءا بأكثر القردة الشبيهة بالانسان تقدما حتى أكثر المخلوقات البشرية بدائية .

ويقدر العلماء ان أولى البقايا البشرية المؤكدة التى تم اكتشافها حتى الآن تنتمى لفترة مضى عليها حوالى مليون سنة . ولكن يبدو أن القردة الشبيهة بالانسان قد عاشت على الأرض ، لا على الأشجار ، قبل هذه الفترة بملايين عديدة من السنين .

وأبرز الملامح التى تحدد مدى تطور هؤلاء الأجداد الأول هو حجم المخ ـ ذلك الحجم الذى زاد بسرعة ملموسة الى أن وصل الى طاقته الراهنة ـ ولكن أصبح ثابتا منذ مئات الآلاف من السنين .

وأثناء مئات آلاف السنين هذه تحسن الانسان من حيث المعرفة ، والمهارة المكتسبة ، والتنظيم الاجتماعى . ولكنه لم يتقدم ـ بقدر ما يستطاع الحكم عليه ـ فى القدرة الذهنية الفطرية . وكان هذا التقدم البيولوجى البحت بقدر ما يمكن تقديره من عظام ـ قد تم منذ عهد بعيد . وبناء عليه ـ يمكن افتراض أن اعدادنا الذهنى الفطرى ، كنقبض لما نكتسبه بالتعليم ـ ليس مختلفا كثيرا عنه فى انسان العصر الحجرى القديم .

ويبدو أنه مازالت لدينا الغرائز التى قادت آناسا ـ قبل أن يصبح سلوكهم اراديا ـ الى الحياة فى قبائل صغيرة ، مع الجمع بين النقيضين الحادين : الصداقة لمن فى الداخل ، والعداء لمن فى الخارج .

ولقد تحتم على التغييرات ، التى طرأت منذ هذه العصور

الأولى ، أن تعتمد فى دوافعها ، جزئيا ، على هذا الأساس الغريزى ، وجزئيا على شعور واع أحيانا بصالح المجموع •

ومن أسباب نشأة الضغوط والتوتر فى حياة البشر الاجتماعية ، احتمال محدود ، أن يصبح المرء على وعى بالأسس العقلانية لسلوك لا تقود اليه غريزة طبيعية ، ولكن عندما يكبت هذا السلوك ، الغريزة الطبيعية ، بقسوة شديدة ، فان الطبيعة تثأر لنفسها ، وذلك باحداث اما حالات لا مبالاة واما حالات الميل للتدمير وكلاهما يمكن أن يتسبب فى انهيار نظام آوحى به العقل •

وقد نما التماسك الاجتماعى ـ الذى بدأ بالولاء للمجموعة ، الولاء المدعوم بالخوف من العدو (نما) بعمليات بعضها تلقائى ، وبعضها مقصود . الى آن وصل الى التجمعات العريضة ، التى نعرفها الآن باسم الأمم •

وقد ساهمت قوى متنوعة فى هذه العمليات ـ ففى مرحلة مبكرة جدا لابد أن الولاء للمجموعة كان يدعمه الولاء للقائد ، ففى القبيلة الكبيرة يمكن أن يكون الزعيم أو الملك معروفا لكل فرد ـ حتى عندما يكون الأفراد الخاصون غالبا غرباء مع بعضهم • وبهذه الكيفية يجعل الولاء الشخصى ـ كنقيض للولاء القبلى ـ زيادة حجم المجموعة ممكنا بدون مجافاة للغريزة •

وفى مرحلة معينة حدث تطور آبعد من ذلك • فالحروب التى بدأت أولا كحروب ابادة ـ تحولت تدريجيا ـ جزئيا على الأقل ـ الى حروب اخضاع ـ فكان المغلوبون ـ بدل أن يقتلوا ـ يتحولون الى عبيد ، ويرغمون على خدمة مخضعيهم • وبحدوث ذلك تواجدت فئتان من الناس فى كل مجموعة : الأعضاء الأصليون الذين كانوا وحدهم أحرارا ـ وكانوا موضع الروح القبلية ، والتابعون الذين يطيعونهم بفعل الخوف ، لا بفعل الولاء الغريزى •

ولقد سيطرت كل من نينيفه(١) وبابيلون(٢) على أقاليم

شاسعة ، لا لأن الشعوب الخاضعة لهما كانت تتمتع بأى شعور غريزى بالاندماج الاجتماعى بالمدينة المسيطرة ، بل فقط، بسبب الخوف الذى اعتراهم بالنظر الى تفوقها فى الحرب • ومنذ تلك الأزمنة القديمة ، حتى عصورنا الحديثة ــ كانت الحرب هى الأداة الرئيسية فى توسع المجتمعات ــ وحل الخوف باطراد مستمر محل التماسك القبلى ، كمصدر للاندماج الاجتماعى • ولم يكن هذا التحول مقصورا فقط على المجتمعات الكبرى ، اذ حدث مثلا فى اسبرطه ، حيث كان المواطنون الأحرار أقلية ــ بينما كان الهيلوت يعانون من القمع بلا رحمة • وقد استحقت اسبرطه المديح على طول العصور القديمة ، لما تمسكت به من تماسك اجتماعى رائع ــ ولكنه كان تماسكا لا يحاول أبدا أن يشمل الشعب بأجمعه ، اللهم الا بقدر ما كان الخوف يفرض الولاء الظاهرى •

وفى مرحلة تالية فى تطور الحضارة بدأ تطور نوع جديد من الولاء : ولاء مؤسس لا على الاشتراك فى الاقليم ، ولا على تشابه الجنس ، بل على وحدة العقيدة • ففيما يختص بالغرب، يبدو أن هذا قد نشأ مع المجتمعات (الأورفية)، التى كانت تسمح بانضمام العبيد مع المساواة • وفيما عدا هؤلاء كانت العقيدة فى العصور القديمة ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحكومة لدرجة أن المجموعات المشتركة فى عقيدة واحدة كانت متطابقة تماما ، مع المجموعات التى كانت قد نشأت قبلا على الأساس البيولوجى • ولكن وحدة العقيدة أصبحت تدريجيا قوة متزايدة باطراد • وظهرت قوتها العسكرية مع الاسلام فى فتوحات القرنين السابع والثامن الميلاديين ، كما زودت الحروب الصليبية والحروب الدينية بالقوة الدافعة • وفى القرن السادس عشر رجحت فى كثير من الأحيان كفة الولاء اللاهوتى على الولاء القومى : اذ انحاز الانجليز الكاثوليك لأسبانيا والهيجونوت الفرنسيون لانجلترا •

وفى عصرنا الحاضر(*) تستحوذ عقيدتان منتشرتان على

(*) يلاحظ أن هذه المحاضرة ألقيت فى سنة ١٩٤٨ •

نطاق واسع على ولاء جانب كبير جدا من البشرية • واحدى هاتين العقيدتين وهى الشيوعية يؤازرها تعصب شديد ويحتويها كتاب مقدس ، والعقيدة الأخرى ـ أقل منها تحديدا ولكنها مع ذلك فعالة ويمكن تسميتها طريقة الحياة الأمريكيه • فأمريكا التى تكونت بالهجرة من بلاد مختلفة ـ ليست لها وحدة بيولوجية ، ولكن لها وحدة لا تقل قوة عن وحدة الأمم الأوروبية • فكما قال ابراهام لنكولن « انها مكرسة لقضية » • فكثيرا ما يعانى المهاجرون الى أمريكا من الحنين لأوروبا ، ولكن غالبية أبنائهم يعتبرون نمط الحياة فى أمريكا أفضل منه فى « العالم القديم » ، ويؤمنون بقوة بأنه من صالح الانسانية أن يصبح هذا النمط عالميا • وفى كل من أمريكا وروسيا تضافرت وحدتا العقيدة والقومية ، وبذلك اكتسبت قوة جديدة ـ ولكن لهاتين العقيدتين جاذبية تتعدى حدودهما القومية •

ومازال الولاء الحديث للمجموعات العريضة فى عصرنا الحاضر ، بقدر ما هو قوى ومكتف ذاتيا ، يستفيد من التركيب السيكولوجى القديم ، الذى نشأ فى أيام القبائل الصغيرة • والطبيعة البشرية الفطرية ـ كنقيض لما تتطور اليه هذه الطبيعة بفعل المدارس والأديان والدعاية والمنظمات الاقتصادية ، لم تتغير كثيرا منذ بدأ الانسان أولا يتمتع بمخ فى حجم المخ الذى تعودنا عليه •

ونميل غريزيا الى تصنيف البشر الى أصدقاء وأعداء : أصدقاء نشعر نحوهم بخلق التعاون ـ وأعداء نشعر نحوهم بالتنافس • ولكن هذا التصنيف يتغير باستمرار ـ ففى لحظة يكره المرء منافسه المهنى ـ وفى لحظة أخرى يبدأ فجأة يعده أخا ، عندما يهدد الاثنين خطر الاشتراكية ، أو أى عدو خارجى • وفى جميع الأحيان عندما نجتاز حدود العائلة، يكون العدو الخارجى مصدرا لقوة التماسك • وفى أوقات السلامة ، نملك أن نكره عدونا • ولكن فى ظروف الخطر يتحتم علينا أن نحبه • وفى أغلب الأحيان لا يغرم الناس

بأولئك الذين يجدونهم بجوارهم فى (الأوتوبيس) ــ ولكنهم يفعلون ذلك أثناء العاصفة (الصاعقة) ·

وهذا هو مصدر الصعوبة فى تصميم وسيلة للوحدة على مستوى العالم : فاذا تم تأسيس دولة عالمية باحكام ، فلن يكون لها أعداء تخشاهم وتكون بناء على ذلك معرضة للانهيار ، لافتقارها للقوة الدامجة ·

ولقد سعت ديانتان عظيمتان ــ هما البوذية والمسيحية ــ أن تقدما للجنس البشرى بأسره الشعور التعاونى، الذى ينشأ غريزيا نحو الزملاء فى القبيلة · وقد بشروا بأخوة البشر فى وعظهم ، وأوضحوا باستعمالهم كلمة « أخوه » أنهم يحاولون جعل موقف وجدانى ــ كان فى الأصل بيولوجيا ــ يتجاوز حدوده الطبيعية · فاذا كنا جميعا أبناء الله فلابد ان نكون جميعا أسرة واحدة · ولكن عند وضع الأمر موضع التنفيذ شعر أولئك الذين اعتنقوا هذه العقيدة ، أن الذين لم يعتنقوها ليسوا أبناء الله بل أبناء ابليس · وعاد التركيب القديم ــ نظام الكراهية لمن هم خارج القبيلة ، ليضيف قوة جديدة للعقيدة ، ولكن فى اتجاه ينحيها جانبا عن هدفها الأصلى · ذلك أن الدين والأخلاقيات والمصلحة الاقتصادية الذاتية ــ بل مجرد السعى للبقاء بيولوجيا ــ كلها تزود أذهاننا بمناقشات لا يمكن الرد عليها ــ لصالح التعاون العالمى · ولكن الغرائز القديمة التى ورثناها من أجدادنا فى القبيلة تهب غاضبة لتشعرنا بأن الحياة سوف تفقد نكهتها ان لم يكن فيها من نكرهه ، وأن أى شخص استطاع أن يحب وغدا مثل فلان الفلانى لابد وأن يكون دودة ، وأن الصراع هو قانون الحياة وأنه لن يكون هناك ما نعيش من أجله فى عالم يحب فيه الكل بعضهم بعضا واذا قدر لعملية توحيد البشرية أن تتحقق ، فسيصبح من الضرورى أن نوجد طرقا للتغلب على وحشيتنا البدائية ، ومعظمها لا واعية ــ وذلك بتأسيس سيادة القانون من ناحية ، وايجاد منافذ بريئة ــ لغرائز التنافس ، لدينا ، من ناحية أخرى ·

وليس هذا مشكلا يسيرا ، ولا هو مشكل يسهل حله ، بالأخلاقيات وحدها • فالتحليل النفسانى ـ بالرغم من أن له بلا شك مبالغاته ، وحتى أحيانا سخافاته ، قد علمنا الكثير مما هو صادق وقيم • ومن الأقوال المأثورة « انك حتى ان طردت الطبيعة بمدراة فانها ستعود حتما » • ولكن التحليل النفسانى زودنا بالتعليق على هذا النص • ونحن نعلم أن أى حياة تحيد أكثر من اللازم ، عن الدافع الطبيعى لابد وأن تؤدى الى حالات توتر ، يمكن أن تتساوى فى مساوئها مع ما كان يحتمل أن ينشأ من مساوىء ـ نتيجة لاشباع الرغبات المحرمة •

والناس الذين يعيشون حياة غير طبيعية بدرجة غير عادية ، يمكن أن يضمروا الحسد والحقد وسوء النية ، وكل ما يتعارض مع الخير • ويمكن أن تتطور فيهم ضغوط القسوة ـ ومن جهة أخرى قد يفقدون تماما كل استمتاع بالحياة ، بدرجة لا يقوون معها على بذل أى مجهود • وقد لوحظت هذه النتيجة الأخيرة بين الهمجيين الذين واجهوا المدنية الحديثة فجأة • وقد وصف علماء الانسان كيف ان صيادى الرؤوس البابيين(٣) ـ عندما حرمتهم السلطان البيضاء من رياضتهم المعتادة (صيد الرءوس) ـ فقدوا كل الحماس ، ولم تعد لديهم آية قدرة على الاهتمام بشىء • ولا أرغب أن أوحى بأنه كان يجب تركهم يذهبون لصيد الرءوس ، ولكنى أقصد ، أنه كان يمكن أن يكون مجديا ، أن يحاول علماء النفس أن يوجدوا لهم نشاطا بريئا كبديل • و « الانسان المتمدين » فى كل مكان ، يقف الى درجة معينة ، نفس موقف ضحايا الفضيلة البابيين، فلدينا كل أنواع غرائزالعدوان ، كما أن لدينا الدوافع الخلاقة التى يمنعنا المجتمع من تحقيقها واشباعها • والفرص البديلة التى يزودنا بها على هيئة مسابقات كرة قدم ، وكل المصارعات المحلية ـ لا تكاد تفى بالغرض •

ويجب على كل من يؤمل فى امكانية الغاء الحرب فى وقت ما ، أن يفكر جديا فى مشكلة اشباع الغرائز ، التى

نرثها من أجيال بعيدة من الهمج • وبالنسبة لى شخصيا ، فانى أجد فى القصص البوليسية تنفيسا كافيا ـ ففيها أرى نفسى تارة فى شخص القاتل ، وتارة فى شخص الشرطى الصائد ، الذى يسعى للقبض عليه ـ ولـكنى أعلم آن هنـاك أولئك الذين يجـدون هـذا التنفيس البديلى أبسـط من اللازم ، ويحتاجون لتزويدهم بما هو أقوى منه •

ولا أظن أن البشر العاديين يمكن أن يكونوا سعداء بدون منافسة ـ لأن المنافسة كانت ومازالت ـ منذ نشأة الانسان ـ الحافز لأغلب الأنشطة الجادة • ولهذا لا يجوز لنا أن نحاول الغاء التنافس ـ ولكن علينا فقط أن نعمل عـلى ألا يتخـذ أشكالا تؤدى الى اصابات بالغة •

وكان التنافس البدائى صراعا على من الذى يسـتطيع اغتيال الرجل الآخر وزوجته وأطفاله ـ والتنافس الحديث فى هيئة الحرب يتخذ نفس هذا الشكل• ولكن فى الرياضة ، وفى التنافس الأدبى والفنى ، وفى السياسـة الدستورية ، يتخذ التنافس أشـكالا أقل ضررا ، ولكنهـا مع ذلك تقـدم تنفيسا مناسبا الى حد ما ، لغرائزنا العدوانية • وليس الخطا هنا فى أن هذه الأشكال للمنافسة أشكال سيئة ، ولكن أنهـا تكون جزءا ضئيلا جدا من حياة الرجال والنساء العاديين •

وباستثناء الحرب ـ فقد هدفت الحضارة الحديثة بدرجة مطردة نحو الأمان ـ ولكنى لست متأكدا بالمرة من أن تحديد كل ضروب الخطر يؤدى الى السعادة •

وأود فى هذه المرحلة آن أقتبس فقرة من محاضرة سـير أرثر كيث (النظرة الحديثة للتطور البشرى) :

« ان أولئك الذين زاروا أقواما يعيشـون تحت (حـكم « العـدالة الوحشـية » Wild Justice يعودون بتقارير عن سعادة أغلب من يعيشون فى تلك الظـروف • فقـد كتبت فرياستارك مثلا تقريرها هذا عن جنوب الجزيرة العربية :

« عندما وصلت (★) فى رحلتى الى ذلك الجزء من البلاد حيث لا يوجد أمان ، وجدت شعبا ــ بالرغم من دأبه على الشكوى من تعرضه للتشهير وللسرقة دائما ــ ممتلئا مع ذلك بالبهجة ، ومستمتعا بسعادة الحياة العادية ، بنفس القدر الذى نجده فى أى مكان آخر فى العالم » .

وكانت للدكتور هـ . ك . فراى تجربة مماثلة بين أبناء استراليا الأصليين ــ اذ قرر أن « المواطن فى حالته الوحشية wild يستشعر فى حياته خطرا دائما ، والأرواح العدائية حوله باستمرار ــ ومع ذلك فهو غير مهموم ــ بل مبتهج يدلل أطفاله يكوم أبويه المسنين . والمثل الثالث الذى أورده هنا مستمد من الهنود الكراو فى أمريكا ، الذين عاشوا تحت ملاحظة د. لاورى سنوات عديدة ــ ويعيشون الآن فى أمان الحجز . وقد قرر د. لاورى ما يلى : « اسأل أحد الكراو ان كان يفضل الأمان الحالى أو خطر الماضى . وسيكون رده « خطر الماضى .. كان فيه زهو ومجد » .

وأنا أفترض أن ظروف الحياة البدائية التى وصفتها كانت تلك التى عاش فيها البشر طيلة حقبة تطوره البدائية ــ وكانت طبيعة الانسان وشخصيته قد تكونت فى تلك الحقبة التى كانت عملية القتل للثأر أحد ظروفها » .

وتلك النتائج لسيكولوجية البشر ــ تبرر بعض الأمور التى كانت ، بالنسبة لى على الأقل ، مدهشة عندما علمت بها لأول مرة سنة ١٩١٤ . فكثير من الناس ، يكونون أسعد حالا ، أثناء الحرب منهم أثناء السلم ــ اذا كانت المعاناة المباشرة الناتجة عن القتال ، لا تؤثر كثيرا عليهم شخصيا . فالحياة الهادئة ، يمكن أن تكون مملة . والوجود الخالى من المغامرة ، لمواطن حسن السلوك ، منشغل فى كسب دخل لحياة متوسطة ، بطاقة متواضعة ، يترك ، بدون اشباع ، ذلك الجزء من طبيعته ، الذى كان يمكن أن يجد مجالا واسعا ، ان هو عاش منذ أربعة آلاف قرن ــ فى البحث عن قطع رقاب

(★) ملحوظة : يلاحظ أن المحاضرة أذيعت فى سنة ١٩٤٨ ــ ولابد وأن هذا التقرير سابق لها فى التاريخ (المترجمة) .

أعدائه ، ومحاولة الهرب من عيون النمور • وعندما تقوم الحرب ، قد يهرب كاتب البنك ليصبح فدائيا ـ وحينئذ سيشعر على الأقل بأنه يعيش ، كما أرادت له الطبيعة أن يعيش •

ولكن ـ لسوء الحظ ـ لقد أدخل العلم ، فى رءوسنا ، سيلا ضخمة لاشباع غرائزنا الهدامة ، بحيث اذا تركنا لها العنان ، لا تخدم أى غرض من أغراض التطور ـ كما فعلت عندما كان الناس منقسمين الى قبائل صغيرة •

ومشكلة التصالح مع دوافعنا الفوضوية ، هى واحدة من المشكلات التى لم تدرس بعد بدرجة كافية ـ ولكنها تزداد أهمية كلما زاد التقدم التكنولوجى • ومن وجهة النظر البيولوجية البحتة ، كان من سوء الطالع أن تقدم الجانب الهدام للتكنولوجيا بسرعة أكثر من الجانب البناء • اذ يمكن للمرء أن يقتل فى لحظة واحدة خمسمائة ألف شخص ، ولكنه لا يستطيع انجاب أطفال بأسرع مما كان أباؤنا البدائيون ينجبون • ولو كان فى وسع رجل أن ينجب خمسمائة ألف طفل بنفس السرعة التى يمكن للقنبلة النووية أن تهلك خمسمائة ألف عدو ـ لأمكننا ـ مع الفظيع من المعاناة ـ ترك المشكلة للصراع على البقاء وللبقاء للأصلح • ولكن لم يعد فى الامكان ـ فى العالم الحديث ـ الاعتماد على ميكانيكية التطور •

ومشكلة المصلح الاجتماعى ـ اذن ـ ليست مجرد البحث عن وسيلة للأمان ـ لأنه ان كانت هذه الوسائل ، فى حالة وجودها لا تهيىء رضا عميقا ـ فسوف نلقى بها بعيدا ، فى سبيل ما تحققه المغامرة من مجد • والمشكلة الأخرى ، هى الجمع بين تلك الدرجة من الأمان ، الضرورية لبقاء الجنس، وبين أشكال المغامرات والخطر والصراع ، التى تتمشى مع نمط الحياة المتمدينة •

وأثناء محاولة ايجاد حل لهذه المشكلة ، علينا أن نتذكر دائما ، أنه بالرغم من أن طريقة حياتنا ، وقوانيننا ،

ومعرفتنا ، قد تعرضت جميعها لتغييرات جذرية ، فان غرائزنا للخير والشر تبقى (الى حد كبير) كما كانت عندما وصلت أمخاخ أجدادنا الى حجمها الحالى فى الوقت الحاضر ٠

وأنا لا أظن أن التوفيق بين الحوافز البدائية وطريقة الحياة المتحضرة مستحيل٠ وقد أوضحت الدراسات الانسانية، استعداد الطبيعة البشرية ، الواسع جدا ، للتكيف مع نماذج ثقافية مختلفة ٠ ولكنى لا أظن، أنه يمكن تحقيق هذا التوفيق باستبعاد الحوافز الأصلية تماما ٠ فحياة بدون مغامرة لابد وأن تصبح غير مرضية ـ ولكن حياة يترك فيها العنان للمغامرة فى أى شكل، لابد وأن تكون قصيرة ٠

وأظن أن جوهر الموضوع قد حدده الهندى الأحمر ، الذى اقتبست حديثه منذ لحظة ، عندما أعرب عن أسفه على الحياة القديمة ، لما فيها من « مجد » ٠ وكل شخص ذى طاقة يود أن يحقق شيئا يعد «مجدا» ٠ وهناك أولئك الذين يحققونه : نجوم السينما، والرياضيون المشهورون ، والقادة العسكريون ـ وحتى قليل من السياسيين ، ولكنهم أقلية ضئيلة ٠

أما الباقون ، فيتركون لأحلام اليقظة : فى السينما ، وفى قصص مغامرات الغرب الوحشية wild واحلام يقظة شخصية بحتة ، ذات قوة تصويرية ـ ولست واحدا من أولئك الذين يعدون أحلام اليقظة كلها شرا ، بل هى جزء أساسى من حياة التصور ٠ ولكن عندما تتقدم ـ خلال حياة طويلة ـ السبل لايجاد صلة بينها وبين الحقيقة ، فانها تصبح بسهولة، غير صالحة ، ومصدر خطر على العقل : وربما مازال فى الامكان ، حتى فى عالمنا الآلى ، أن نجد منفذا لحوافزنا ، المحصورة حاليا فى عالم الخيال ٠ ونأمل ـ من أجل الاستقرار أن يصبح هذا ممكنا ـ لأنه ان تعذر تحقيقه ـ فستكتسح النظريات والفلسفات الهدامة انجازات البشر ، من حين لآخر ٠ واذا تعين علينا أن نمنع هذا ، فلابد أن يجد العنصر الهمجى فى كل منا منفذا متوافقا مع الحياة الحضرية ، ومع سعادة جاره الهمجى بنفس القدر ٠

ـ ٢ ـ

(التماسك الاجتماعي والحكومة)

ان التركيب الأصلي للتماسك الاجتماعى ـ كما يوجد حتى الآن بين أكثر الأجناس بدائية ـ كان تركيبا يعمل خلال علم النفس الفردى ، دون الحاجة لأى نظام يمكن تسميته حكومة · وكانت هناك ـ بلا شك ـ عادات محلية ، كان على الجميع اتباعها ـ ولكن على المرء أن يفترض ان لم يكن هناك دافع لعصيان هذه العادات ، ولا حاجة الى قضاة ، ورجال أمن ، لفرضها بالقوة ·

وفى أيام العصر الحجرى القديم ـ يبدو ـ فيما يختص بالسلطة أن القبيلة عاشت ، فى حالة ، يمكن وصفها الآن بالفوضى ـ ولكنها كانت مختلفة تماما عما يطلق عليه هذا الاسم فى مجتمع حديث ، بسبب حقيقة أن الحوافز الاجتماعية ، كانت تتحكم ـ بدرجة كافية ـ فى تصرفات الأفراد ·

وكان رجال العصر الحجرى الجديد مختلفين تماما · اذ كانت لهم حكومة وسلطات قادرة على فرض الطاعة والتعاون على نطاق واسع · وهذا واضح فى أعمالهم · فلم يكن فى مقدور النوع البدائى لتماسك القبيلة الصغيرة أن ينتج معبد ستونهنج(٤) ولا الاهرامات، ولابد أن تكبير حجم الوحدة الاجتماعية قد نتج عن الحرب ـ فاذا قامت حرب ابادة بين قبيلتين فان القبيلة المنتصرة تصبح قادرة ـ باكتسابها أقاليم جديدة ، على زيادة عدد أفرادها ·

كذلك تنتج عن الحرب ميزة اتحاد قبيلتين أو أكثر ، واذا استمر الخطر الذى أدى الى التحالف ، يتحول التحالف بمرور الوقت الى تجمع · وعندما تصير الوحدة كبيرة بدرجة

يتعذر معها على أفرادها أن يعرفوا بعضهم بعضا ، تنشأ الحاجة الى نظام للوصول الى قرارات جماعية · ويتطور هذا النظام بدوره تدريجيا الى ما يسميه الانسان الحديث (حكومة) · وبمجرد أن توجد حكومة يتمتع بعض الرجال بالسلطات أكثر من غيرهم · وتعتمد سلطاتهم، بصفة عامة ، على حجم الوحدة التى يحكمونها · وهكذا يقود حب السلطة لدى الحكام الى الرغبة في الاخضاع · ويقوى هذا الدافع كثيرا عندما يتحول المهزومون الى عبيد بدلا من ابادتهم ·

وبهذه الطريقة ، نشأت منذ وقت مبكر جدا ، مجتمعات اعتمدت بدرجة بالغة على سطوة الحكومة لعقاب من كانوا يعصونها ، رغم أن حوافزها البدائية نحو التعاون الاجتماعى استمرت قائمة ·

وفى أقدم المجتمعات تاريخيا ــ مجتمع مصر القديمة ــ نجد ملكا بسلطات مطلقة على اقليم شاسع ، باستثناء بعض التحديد من قبل الكهنة ، كما نجد شعبا كبيرا خاضعا ، استطاع الملك عندما شاء ، أن يستخدمه فى انشاءات الدولة كالأهرام مثلا · وفى مجتمع كهذا ، كانت الأقلية فقط ــ كالملك والطبقة العليا والكهنة ، على قمة السلم الاجتماعى ــ تحتاج الى تنظيم نفسانى ، لتحقيق التماسك الاجتماعى ــ وكان على الباقين مجرد الطاعة ·

ولا شك أن قطاعات كبيرة من الشعب كانت غير سعيدة · ويمكن تصور حالتهم من الفصول الأولى من سفر (الخروج) ولكن كانت القاعدة انه طالما لا يوجد خوف من العدو الخارجى ، فان حالة المعاناة المنتشرة على نطاق واسع ، لا تمنع رخاء الدولة ، ولا تمس استمتاع حائزى السلطة بالحياة ·

ولابد أن هذه الحال قد سادت على مدى أزمنة طويلة ، فيما نسميه الآن (الشرق الأوسط) · وكانت تعتمد فى استقرارها على الدين وقدسية الملك · وكان العصيان يعد كفرا ، والتمرد مدعاة لغضب الآلهة · وطالما كانت الطبقات

الاجتماعية العليا حق مؤمنة بذلك ـ كان من السهل تطويع الباقين كما نطوع الحيوانات الأليفة الآن ·

ومن الحقائق العجيبة أن الانتصار العسكرى ، كان فى كثير من الأحيان يولد عند المغلوبين ولاء حقيقيا نحو رؤسائهم ـ وقد حدث هذا فى الوقت المناسب مع أغلب الانتصارات الرومانية ·

وفى القرن الخامس ـ لما لم يعد فى وسع روما فرض الطاعة ـ بقيت بلاد الغال (٥) Gaul على ولائها الكامل للامبراطورية ·

وقد اعتمدت كل الدول القديمة في وجودها على القوة العسكرية ، ولكن أغلبها كان يستطيع ـ اذا بقى وقتا كافيا ـ أن يولد شعورا بالتماسك في المجموع ، بالرغم من المقاومة العنيفة لأجزاء كبيرة في وقت استيعابهم ·

وقد حدث نفس الشىء ثانيا ، مع نمو الدولة الحديثة ، أثناء العصور الوسطى · فانجلترا وفرنسا واسبانيا ، حصلت على الوحدة نتيجة للنصر العسكرى على يد حاكم لقسم مما أصبح أمة واحدة ·

وفى الأزمنة القديمة ، عانت كل الدول الكبرى ـ الا مصر ـ من الحاجة للاستقرار ـ وكانت الأسباب تقنية فى الغالب · فحينما لم يكن هناك ما يمكن آن يتحرك أسرع من الحصان ، كان من الصعب على الحكومة المركزية ، أن تحتفظ بقبضة حازمة ، على حكام الأقاليم النائية ، الذين كان يحتمل أن يتمردوا ، وأن ينجحوا أحيانا فى اخضاع كل الامبراطورية · وفى أحيان أخرى أن ينصبوا أنفسهم حكاما مستقلين لقطاع منها · ولقد قامت للاسكندر الأكبر ، وآتيلا (٦) وجنجزخان (٧) امبراطوريات شاسعة ، تفتتت بعد وفاتهم ، وكانت الوحدة فيها قد اعتمدت كليا على منزلة منتصر عظيم · ولم تكن لهذه الامبراطورية وحدة سيكولوجية ـ ولكن فقط وحدة السطوة ·

وقد فعلت روما أفضل من ذلك • لأن الحضارة الاغريقية الرومانية كانت حضارة يقدرها الأفراد المثقفون ، وكانت مضادة بشدة لبربرية القبائل عبر الحدود • والى أن تم اكتشاف التقنيات الحديثة ، لم يكن ممكنا الاحتفاظ بامبراطورية عظمى موحدة ، الا اذا كان للقطاعات العليا من المجتمع ــ طولا وعرضا ــ عاطفة ما مشتركة، يمكن توحيدهم بواسطتها ــ وكانت الوسائل التى يمكن بها توليد مثل هذه العاطفة المشتركة ــ غير مفهومة بالدرجة التى نفهمها بها الآن • ولهذا كان الأساس السيكولوجي للتماسك الاجتماعي، مازال مهما ، بالرغم من أن الحاجة اليه كانت محصورة فى الأقلية الحاكمة •

وفى المجتمعات القديمة ، كانت الميزة الأساسية للحجم الكبير ، وبالذات ، فى امكانات جيوش كبيرة ، متوازنة مع عائق الحاجة لوقت طويل لتحريك الجيش من أحد أجزاء الامبراطورية الى جزء آخر ، وأيضا أن الحكومة المدنية ، لم تكن قد اكتشفت بعد ــ وسائل منع التمرد العسكرى • وقد استمرت هذه الأحوال بدرجة ما حتى الأزمنة الحديثة •

فالى حد كبير ، كان عائق التحرك هو الذى سبب فقدان انجلترا واسبانيا والبرتغال ممتلكاتهم فى نصف الكرة الغربى • ولكن منذ ظهور البخار والتلغراف ، أصبح الاحتفاظ باقليم شاسع أسهل كثيرا من ذى قبل • ومنذ ظهور التعليم الشامل ، أصبح غرس ولاء صناعى فى شعب كبير أكثر سهولة •

وقد سهلت التقنية الحديثة تحقيق سيكولوجية التماسك فى المجموعات الكبيرة ــ وليس هذا فقط ، بل انها جعلت تلك المجموعات حتمية من وجهتى نظر اقتصادية وعسكرية معا • فمزايا الانتاج على نطاق واسع موضوع مكرر ، ولا أنوى أن أتوسع فيه • وكما يعلم الكل ، فقد كانت (هذه المزايا) موضع الحاح كسبب لوحدة أوثق بين أمم غرب أوروبا • ولقد عزز نهر النيل ، منذ أقدم الأزمنة ــ

تماسك مصر كلها ، لأن حكومة تسيطر فقط على أعالى النيل يمكنها القضاء على خصوبة مصر الدنيا • ولم تتدخل أى تقنية متقدمة فى هذا المجال ـ ولكن هيئة وادى نهر التينيسى والممر المائى المقترح لنهر سانت لورانس ، هى امتدادات علمية لنفس فاعلية الأنهار فى التماسك • ومحطات القوى المركزية ، التى توزع الطاقة الكهربية على مساحات واسعه ، أصبحت مهمة بدرجة مطردة ، وتدر ربحا أكثر عندما تكون المساحة كبيرة عنها عندما تكون صغيرة • واذا أصبح عمليا (وهو أمر غير محتمل) استعمال الطاقة الذرية على نطاق واسع ، فان من شأن هذا أن يضيف بقدر هائل مساحة التوزيع المربحة •

وكل هذه التطورات الحديثة ، تزيد السيطرة على حياة الأفراد التى يملكها من يحكمون منظمات ضخمة ، وتجعل فى نفس الوقت ، القليل من المنظمات الضخمة ، أكثر تفوقا فى الانتاج عن القليل من المنظمات الأصغر •

وعلى مستوى كوكب الأرض كلها ، لا يوجد حد مرئى لمزايا الحجم ، سواء فى المنظمات الاقتصادية أو السياسية •

وأصل الآن الى عرض آخر لنفس التطورات الحكومية المتشابهة تقريبا من وجهة نظر مختلفة • فقد اختلفت أشكال سيطرة الحكومات على حياة أعضاء المجتمع خلال الحقبات التاريخية ـ ليس فقط من حيث حجم المنطقة الحكومية ، بل من حيث عمق تدخلها فى الحياة الفردية • ويبدأ ما يمكن تسميته حضارة بامبراطوريات من نوع محدد جيدا ، وأكثرها وضوحا هى مصر وبابيلون ونينيقا ، وكانت امبراطوريتا أزتك(٨) وانكا (٩) أساسا من نفس النوع •

وفى مثل هذه الامبراطوريات ، كان للطبقة العليا فى البداية قدر مرموق من السبق الشخصى ، ولكن شعب العبيد الكبير ، المكتسب من الانتصار الأجنبى ، لم يكن له منه شىء • وكان فى استطاعة الكهنة التدخل فى الحياة اليومية

بدرجة كبيرة جدا • وباستثناء المجالات المتعلقة بالعقيدة ، كانت للملك سلطة مطلقة ــ وكان يمكنه ارغام تابعيه على الاشتراك في حــروبه • ونتج عن قدسية الملك ، والتبجيــل للكهنـــوت مجتمع مســـتقر ، فى حالة مصر ، وهى أكثر المجتمعات ، التى لنا علم بها ، استقرارا • وقد تهيأ هــذا الاستقرار على حساب التشدد •

وقد أصبحت هذه الامبراطوريات القــديمة ، ثابتــة النمط (مقولبة) لدرجة لم تعد قادرة معها على صد الاعتداء الخارجي ــ فاستوعبتها فارس ، وفارس فى النهاية هزمهــا الاغريق •

واستكمل الاغريق نوعا جديدا من الحضــارة كان قد بدعه الفينيقيون ، وهو نظام دولة المدينة Citytate المؤسسة على التجارة والسيطرة البحرية • وقد تباينت المدن الاغريقية وكان فى كثير منها قدر كبير من الحــرية ، ولــكن كان فى اسبرطة أقل قدر ممــكن منها • واتجهت أغلبهــا مع ذلك ، للوقوع تحت نير الطغاة • وخلال فترات طويلة ، كان لهــم نظام استبدادى تخففه الثورة •

وكانت الثورة ســهلة فى دولة المدينــة ــ اذ كان عــلى الغاضبين أن يجتازوا عدة أميال ليبتعدوا عن حــدود اقليم الحكومة التى يريدون التمرد عليها ، وكانت هناك دائمــا دويلات مستعدة لمساعدتهم • وطوال عصر الاغريق العظيم كان هناك قدر من الفوضى من شأنه أن يبدو، للعقل الحديث، غير محتمل • ولكن سكان المدينــة اليونانيــة ، حتى أولئك الذين كانوا فى تمرد ضــد الحــكومة الفعليــة ، احتفظوا بسيكولوجية ولاء بدائى ، اذ أحبوا مدينتهم بتفان كان فى أغلب الأحيان غير رزين ــ ولكنــه كان عاطفيا على الدوام تقريبا • وكانت عظمة الاغريق فى الانجاز الفردى ، عــلى ما أعتقد مرتبطة ارتباطا وثيقا بعدم صلاحيتهم كسياسيين ، لأن قوة الوجدان الفردى كانت مصدرا لــكل من الانجــاز الفردى ، والفشل فى الحفاظ على وحدة اغريقية • وهكذا

وقعت بلاد اليونان تحت هيمنة مقدونيا أولا ثم روما فيما بعد •

وقد تركت الامبراطورية الرومانية ـ أثناء توسعها ، قدرا كبيرا جدا من الحكم الذاتى الفردى والمحلى فى الأقاليم، ولكن ، بعد حكومة أوغسطس اكتسبت ، تدريجيا ، قدرا أعظم فأعظم من السيطرة ، وفى النهاية ، وبالأخص عن طريق المغالاة فى فرض الضرائب ، تسببت فى انهيار النظام الكلى ، فى الجزء الأكبر مما كان يعرف بالامبراطورية الرومانية • ومع ذلك لم يكن هناك فيما تبقى ، أى تراخ فى الحكم •

وكانت المعارضة لهذا الحكم الدقيق ـ أكثر من أى سبب آخر ـ هى التى جعلت اعادة غزو جاستنيان لايطاليا وأفريقيا سريع الزوال بهذه الصورة • ذلك لأن أولئك الذين كانوا قد رحبوا فى البداية بقواته كمخلصين من القوطيين والفانداليين غيروا رأيهم عندما أعقب قواته جيش من جباة الضرائب •

وكانت محاولة روما توحيد العالم المتمدين قد وصلت الى حالة مأساوية ، ربما لأنها كانت الى حد كبير بعيدة واجنبية ، فشلت فى جلب أى درجة من السعادة الغريزية ، حتى لدى المواطنين الموسرين •

وفى قرونها الأخيرة تفشى التشاؤم وفقدان الحماس والحيوية حتى أصبحت مظاهر عامة • وشعر الناس أن الحياة هنا على الأرض لا تقدم الكثير ـ وساعد هذا الشعور المسيحية على التسلط على أفكار الناس عن العالم القديم •

وبخسوف شمس روما اعترى الغرب تحول كامل للغاية • اذ توقفت التجارة تقريبا ، وتعرضت الطرق العظمى لحالة اهمال وعدم صيانة ـ وكثيرا ما دخل الملوك التافهون فى حروب فيما بينهم ، بينما كان عليهم أن يواجهوا فوضى الأرستقراطية التيوتونية المشاغبة ، والكره والامتعاض من الشعب الذى كان قد أصبح رومانيا •

ولقد اختفت تقريبا العبودية على نطاق واسع فى كل الغرب المسيحى ، ولكن حلت محلها عبودية الأرض • وبدلا من اعتمادها على الأساطيل الضخمة ، التى كانت تنقل الحبوب من أفريقيا الى روما ، عاشت مجتمعات صغيرة ، لها اتصالات خارجية قليلة ونادرة ، بقدر الامكان ، على محاصيل أراضيها ذاتها • وغدت الحياة صعبة وقاسية : ولكن لم تعد لها صفات التواكل واليأس التى كانت لها فى أيام روما الأخيرة •

وخلال العصور المظلمة والمتوسطة انتشر التمرد على القانون ـ ونتيجة لذلك أله أهل الفكر والحكماء القانون • وبالتدريج أعاد النشاط الذى كان قد أتاحه التمرد على القانون ، قدرا من النظام ، ومكن عددا من الرجال العظام من بناء حضارة جديدة •

وبدءا بالقرن الخامس عشر الى وقتنا الحاضر ، تزايدت باطراد سطوة الدولة كمناهضة للفرد ، أولا ، وبدرجة رئيسية نتيجة لاختراع البارود • وتماما كما كان الحال فى الأيام الأولى للفوضى : وتماما كما قدس القانون أعظم الرجال تفكيرا ـ فقد كان هناك اتجاه متزايد ، أثناء فترة ازدياد سطوة الدولة ـ لتقديس الحرية •

وكان للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر قدر ملحوظ من النجاح فى زيادة سطوة الدولة ، بالقدر الذى كان ضروريا للحفاظ على النظام ، وفى ترك قدر كبير من الحرية ـ رغما عنها ـ لأولئك المواطنين الذين لا ينتمون لأدنى الطبقات الاجتماعية •

ومع ذلك ـ يبدو أن الدافع نحو الحرية ، قد فقد كثيرا من قوته بين المصلحين ، وقد حل محله حب المساواة ، الذى حفزه كثيرا ظهور سطوة أقطاب صناعيين جدد ، بدون أى حق تقليدى فى الرئاسة • وقد أقنعت ضرورات الحرب الشاملة الجميع تقريبا بضرورة وجود نظام اجتماعى أكثر احكاما مما ارتضاه أجدادنا •

ويوجد على جزء كبير من سطح الأرض نظام لا يختلف

عن الارتداد للنظام المصرى القديم للملكية المقدسة ، التي تتحكم فيها طبقة من الكهنة • وبالرغم من أن هذا الاتجاه لم يتدعم بعد كثيرا فى الغرب كما فعل فى الشرق ، فانه مع ذلك وصل الى مدى ، كان من شأنه أن يدهش القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فى كل من انجلترا وأمريكا ، فالسبق الفردى تطوقه فى الحالتين ، الدولة أو المؤسسات القوية ، وهناك خطر كبير مما قد يترتب على هذا ، كما حدث فى روما القديمة ، من ضروب من الكسل واللامبالاة ، والقدرية (الايمان بالقضاء والقدر) التى تهدد الحياة النشيطة بالفناء •

وأنا أتلقى باستمرار خطابات تقول : « أنا أرى أن العالم فى حالة سيئة • ولكن ماذا يمكن ، لشخص واحد متواضع ، أن يفعله ؟ ان الحياة والملكية اصبحتا تحت تصرف أفراد معدودين ، يملكون تقرير السلم أو الحرب • وتتقرر الانشطة الاقتصادية على أى مستوى عريض بواسطة أولئك الذين يحكمون الدولة ، أو المؤسسات الكبرى • وحتى حيثما توجد ديمقراطية اسميا ، فان الدور الذى يمكن لأحد المواطنين القيام به فى التحكم فى السياسة ، يكون عادة ضئيلا جدا • أليس من الأفضل ـ ربما ـ فى مثل هذه الظروف ـ أن ننسى الشئون العامة وأن نحصل على أكبر كم من المتعة المناسبه ، بقدر ما يسمح الوقت ؟ » •

وأنا أجد فى الرد على مثل هذه الخطابات صعوبة جمة • وأنا متأكد أن الحالة الذهنية التى تؤدى الى كتابتها متعارضة جدا مع أى حياة اجتماعية سوية • فنتيجة لمجرد حجمها ، تصبح الحكومة باطراد ، بعيدة عن المحكومين ، وتتجه ، حتى فى دولة ديمقراطية ، لأن تصبح لها حياة مستقلة ذاتيا • وأنا لا أدعى القدرة على علاج هذا الشر بالكامل ، ولكنى أرى أن من المهم أن نعترف بوجوده ، وأن نبحث عن وسائل تقليص ضخامته •

ان التركيب الغريزى للتماسك الاجتماعى ، وهو الولاء لقبيلة صغيرة ، أعضاؤها يعرف جميعهم بعضهم بعضا ، هو

شيء بعيد جدا ، فى الواقع ، من نوع الولاء لدولة عظمى ، الذى حل محله فى العالم الحديث • وحتى ما تبقى من الولاء الأكثر بدائية ، يتعرض للاختفاء فى التنظيم الجديد الذى تستدعيه الأخطار الحالية • فيمكن لرجل انجليزى أو اسكوتلندى أن يشعر بالولاء الغريزى نحو بريطانيا ، وقد يعرف ما يملك شيكسبير قوله عنها ، ويعلم أنها جزيرة لها حدود كلها طبيعية ، وهو على علم بالتاريخ الانجليزى ، على الأقل ـ فيما يختص بأنه مجيد ، ويعلم أن الناس على القارة يتحدثون لغات أجنبية •

ولكن اذا قدر للولاء لبريطانيا أن يحل محله ولاء للاتحاد الغربى ، فستستجد الحاجة لوعى بالثقافة الغربية كشيء له وحدة تتعدى الحدود القومية ـ ذلك لأنه بصرف النظر عن هذا ـ فهناك دافع هو حافز الخوف من الأعداء الخارجيين •

ولكن الخوف حافز سلبى ، ويصبح غير فعال فى لحظة النصر • واذا قورن بحب مواطن اغريقى لمسقط راسه ، يتضح أن تأثير الولاء المؤسس على الخوف فقط ، على غرائز وانفعالات الرجال والنساء ، فى غياب أخطار وشيكة وملحة ، يكون أقل منه كثيرا •

وكانت للحكومة وظيفتان ، من أقدم الأزمنة التى قامت فيها ، احداهما سلبية ، والثانية ايجابية • وكانت وظيفتها السلبية منع العنف الخاص ، وحماية الحياة والملكية ، وسن القانون الجنائى ، وضمان تنفيذه •

ولكن ، بالاضافة الى هذا ، كان لها هدف ايجابى ، وهو تسهيل تحقيق الرغبات ، التى تعتبر عامة ، للغالبية العظمى من المواطنين • وكانت الوظائف الايجابية للحكومة ، فى معظم الأزمنة ، محصورة غالبا فى الحرب • فاذا أمكن هزيمة عدو وضم اقليمه ، فان كل فرد فى الأمة المنتصرة يحقق كسبا بدرجة كبيرة أو صغيرة •

ولكن الوظائف الايجابية للحكومة تضخمت الآن بدرجة

بالغة • فهنـــاك قبل كل شيء التعليم ، الذى يعتمـــد ، ليس فقط ، على تحقيق تحصيل مدرسى ، ولـــكن أيضـــا على غرس أنواع معينة من الولاء ، ومن المعتقدات ، وهذه هى تلك التى تعدها الدولة مرغوبا فيهـــا ، وفى بعض الأحيان ، بدرجة أقل ، تلك المطلـــوبة من هيئـــة دينية • ثم هناك مشروعات صناعية ضخمة ــ وحتى فى الولايات المتحدة ، التى تحاول تقليص أنشطة الدولة الاقتصادية الى أقصى درجة ممـــكنة ، فان سيطرة الحكومة على مثل هذه المشروعات ، تزداد بسرعة • وبالنسبة للمشروعات الصناعية ، هناك فارق بسيط ، من وجهة النظر السيكولوجية ، بين هـــذه التى تشرف عليهـــا الدولة ، وتلك التى تديرها هيئات خاصة • وفى كلتا الحالتين هناك حكومة ــ هى فى الواقع ــ ان لم يكن بالقصد ــ بعيدة عن أولئك الذين تشرف عليهم • وأعضاء الحكومة فقط ــ سواء فى دولة أو فى هيئة كبرى ــ هم الذين يمكنهم الاحتفاظ بشعور بالسبق الفردى ، وهناك لا محالة ، اتجاه الحكومات للنظر لأولئك الذين يعملون معهـــا ، ليس أكثر أو أقل من نظرتها لآلاتها ، وبتعبير آخر ، كمجرد وسيلة ضرورية • وتميل باستمرار الرغبة فى تعاون سلس ، نحو زيادة حجم الوحدات ، وبنـــاء عليـــه ، الى تقليص عـــدد أولئك الذين مازالوا يملكون سلطة السبق •

والأسوأ من كل شيء ، من وجهة نظرنا الحاضرة ، هـــو النظام الذى يوجد فى مصـــانع كبيرة فى بريطانيـــا ، حيث تسيطر ، باستمرار ، على أولئك الذين لهم ســـبق اســـمى ، ادارة مدنية ، تملك فقط حق رفض القـــرار ، دون واجب التنفيذ ، وبذلك تكتسب سيكولوجيـــة سلبية ، تميـــل عـــلى الدوام للحظر • وفى ظل نظام كهذا يتحول النشطاء لليأس ، وأولئك الذين كان يمكن أن يصبحوا نشطاء فى بيئة أكثر أملا ، يميلون لأن يصيروا كسالى وتافهين • ولا يحتمل تأدية وظائف الدولة الايجابيـــة بنشاط أو كفـــاءة ، ويحتمل أن علم الحشرات الاقتصادى يمكن أن يحقق أرباحا اضخم بكثير مما يحققه فى الوقت الحاضر ، ولـــكن هـــذا يتطلب اعتماد

رواتب لعدد كبير من علماء الحشرات • وتؤمن الحكومة فى الوقت الحاضر بأن سياسة جريئة لدرجة توظيف علماء حشرات يجب فقط أن تطبق بحذر • وهذا ـ بدون شك ـ هو رأى الرجال الذين اكتسبوا العادة التى يراها المرء بين الآباء غير الحكماء ـ عادة قول « لا تفعل هذا » دائما ، دون انتظار التفكير فيما اذا كان « هذا » يسبب أى أذى • ومثل هذه الأضرار يصعب كثيرا تحاشيها حيثما يوجد تحكم من بعيد ، وهناك احتمال وجود الكثير من التحكم البعيد فى أى منظمة ضخمة للغاية •

وسأبحث فى محاضرة تالية ما يمكن عمله لتخفيف هذه الأضرار ، دون فقد المزايا المذكورة للتنظيمات على المستوى العريض • ويجوز أن تكون الاتجاهات الحالية نحو المركزية ، قوية بدرجة لا يمكن مقاومتها ـ قبل أن تؤدى الى كارثة ، وكما حدث فى القرن الخامس ، آن النظام بكامله يجب أن ينهار مع كل العواقب التى لا يمكن تحاشيها من فوضى وفقر، قبل أن تستطيع البشرية أن تكتسب من جديد تلك الدرجة من الحرية الشخصية ، التى بدونها ، تفقد الحياة نكهتها • وانى أتمنى ألا تكون هذه هى الحال ، ولكن من المؤكد أنها ستكون كذلك ، الا اذا تبين الخطر ، والا اذا اتخذت اجراءات فعالة لمقاومته •

وفى هذه الصورة الموجزة للتغييرات المتصلة بالتماسك الاجتماعى التى حدثت فى أزمنة التاريخ ، يمكننا ملاحظة حركة مزدوجة الأبعاد :

فمن جهة ـ هناك تطور دورى من نوع من الادارة ـ متسيب وبدائى ، الى حكومة أكثر تنظيما بالتدريج ، تشمل مساحة أوسع ، وتتحكم فى قسم أكبر من حياة الأفراد • وعند مرحلة معينة من هذا التطور ، عندما تحققت أخيرا زيادة كبيرة فى الثروة والأمن ، ولكن لم تختف بعد حيوية ومغامرة العصور الأكثر همجية ، هناك احتمال أن تتحقق انجازات عظيمة من نوع الحضارة الزاحفة • ولكن عندما

تصبح الحضـارة الجـديدة ثابتة النمط ، وعنـدما تكون الحكومة قد ملكت من الوقت ما يسمح بتـدعيم سـطوتها ، وعندما تكون العادات والتقاليد والقانون قد أرست قواعد دقيقة بدرجة تكفى لكبت روح المغامرة ، فان الحضارة المعنية تدخل فى مرحلة ركود ــ ويمتدح الرجال مآثر أسـلافهم ، ولكنهم لا يستطيعون مجاراتهم حاليا ، ويصير الفن تقليديا ، وتختنق العلوم باحترام السلطة ٠

وهذا النوع من التطـور الذى يتلوه تحجر يوجـد فى الصين والهند ، وفى Mesopotamia (١٠) ومصر ، وفى العـالم الاغريرومانى ــ وتأتى النهاية عادة عن طريق الغزو الأجنبى: وهناك حكم وأسس قديمة لمحاربة الأعداء القدامى ، ولكن عندما يظهر عدو من نوع جديد، فان المجتمع الأقدم لا يملك القابلية للتكيف لاتباع الحكم والأسس الجديدة التى تستطيع وحدها تحقيق الأمن ٠ واذا كان الغزاة ــ كما يحدث كثيرا ــ أقل مدنية من المغلوبين ، فمن المحتمل ألا تكون لديهم المهارة اللازمة لادارة الحكومة لامبراطورية كبيرة ، ولا للحفاظ على التجارة على نطاق واسع ٠ وتكون النتيجة تضاؤل الشعب ، وحجـم الوحـدات الحـكومية ، وقوة الرقابة الحـكومية ، وبالتدريج ، فى الظروف الجديدة شبه الفوضوية ، تعـود الرقابة الحيوية ، وتبدأ دورة مرحلة جديدة ٠

ولكن بالاضافة الى هذه الحركة المرحلية ، هناك حركة أخرى عند قمة كل دورة ، تكون فيها المساحة التى تحكمهـا دولة واحدة ، أكبر منها فى أى وقت سابق ، ودرجة التحكم التى تمارسها السلطة على الفرد أكثر شدة عنها فى أى تأوج سابق ٠ فالامبراطورية الرومانية كانت أوسـع من كل من الامبراطوريتين البابيلونية والمصرية ، وامبراطوريات اليوم أكبر من الامبراطـورية الرومانية ٠ ولم يحـدث أبدا فى التاريخ السابق أن قامت دولة كبرى بالتحكم فى مواطنيهـا بدرجة كاملة كما يحدث حاليا (★) فى الاتحاد السوفيتى ، ولا حتى فى بلاد غرب أوروبا ٠

(★) يلاحظ تاريخ المحاضرة (٤٨ ــ ١٩٤٩) ٠ (المترجمة)

ولما كانت رقعة الأرض محدودة المساحة ، فان هذا الاتجاه ، ان تم يوقف ، لابد وأن يؤدى الى خلق دولة عالمية واحدة (★) • ولكن طالما ليس للعدو الخارجي وجود يعزز التماسك عن طريق الخوف ، فان الأجهزة السيكولوجية تغدو غير صالحة بعد ذلك • ولن يكون هناك مجال للوطنية فى شئون الحكومة العالمية ـ وسوف يصبح ضروريا ايجاد القوة الدافعة فى الصالح الذاتى والاحسان ، بدون المبررات القوية مثل الكراهية والخوف • هل يمكن لمثل هذا المجتمع أن يتبت؟ ولو ثبت فهل يكون فى استطاعته التقدم ؟ هذه اسئلة صعبة ـ وسأقدم فى المحاضرات التالية بعض الاعتبارات التى يجب أخذها فى الحسبان اذا كان سيجاب عليها •

ولقد تحدثت عن حركة ذات بعدين فى التاريخ السابق ـ ولكنى لا أعتقد أنه يمكننا اكتشاف اى شىء موحد او حتمى بالنسبة لهذه القوانين المتصلة بالتطور التاريخى • ويمكن للمعرفة الجديدة ان تجعل مجرى الاحداث مختلفا تماما عما كان من شأنه أن يكون فى غيابها ـ وكان هذا على سبيل المثال ، نتيجة لاكتشاف أمريكا • والتشريعات الجديدة ، كذلك ، يمكن أن تحدث تأثيرات لم يكن فى الامكان التنبؤ بها ، وأنا لا أتصور ، كيف كان يمكن لاى رومانى فى عصر يوليوس قيصر أن يتنبأ بأى شىء مثل الكنيسة الكاثوليكية • وما من شخص فى القرن التاسع عشر ، ولا حتى ماركس (★★) تنبأ بالاتحاد السوفيتى •

ولمثل هذه الأسباب فان كل التنبؤات بالنسبة لمستقبل البشرية يجب التعامل معها فقط كنظريات افتراضية قد تكون جديرة بالدراسة • وأعتقد انه بينما تكون كل التنبؤات المحددة طائشة ، فهناك احتمالات معينة غير مرغوب فيها ، ومن الحكمة أخذها فى الاعتبار • فمن جهة يمكن للحرب المدمرة التى تستمر طويلا ان تسبب انهيارا فى

(★) يلاحظ ما حدث من تحقيق هذه النبوءة فى ١٩٩٢ بعد وفاة راسل بربع قرن تقريبا • (المترجمة)

(★★) دور ماركس معروف فى التاريخ الحديث وفى الاتحاد السوفيتى سابقا • (المترجمة)

الصناعة فى كل الدول المتحضرة ، وأن تعود الى حالة فوضوية على نطاق ضيق ـ كالتى سادت فى أوروبا الغربية بعد سقوط روما • ومن شأن هذا أن يتضمن تضاؤلا بالغا فى الشعب ـ وعلى الأقل ـ الى وقت ما ، توقف الكثير من الأنشطة التى نعدها سيمات مميزة لطريقة حياة متحضرة • ولكن قد يبدو معقولا ، أن نؤمل أنه ، كما حدث فى العصور الوسطى ، يمكن استعادة حد أدنى كاف ، من التماسك الاجتماعى ، وأن تسترد بالتدريج المساحة المفقودة •

وهناك مع ذلك ـ خطر آخر ، ربما يكون حدوثه أكثر احتمالا :

فقد جعلت التقنيات الحديثة فى الامكان تحقيق قدر جديد من احكام الرقابة الحكومية ـ وقد استغلت هذه الامكانية تماما فى الدول الاستبدادية • وربما يكون الأمر أنه ، تحت ضغط الحرب ، أو الخوف من الحرب ، أو كنتيجة لغزو استبدادى ، يمكن أن يتناقص عدد أقاليم العالم التى بقى فيها بعض القدر من الحرية الفردية • وحتى فى هذه الاقاليم ـ تصبح الحرية مقيدة أكثر فأكثر • وليس هناك سبب قوى لافتراض أن النظام الناتج سيكون غير مستقر ـ ولكن من شبه المؤكد أنه سيكون جامدا وغير تقدمى ، وأنه سيجلب معه عودة للمساوىء العتيقة : العبودية والتعصب الأعمى وعدم التسامح والبؤس المدقع لغالبية البشر ، وهذا فى نظرى بلاء ، من الأهمية البالغة أن نأخذ حذرنا منه • ولهذا السبب يصبح التأكيد على قيمة الفرد أكثر ضرورة الآن من أى وقت سابق •

وهناك فكرة خاطئة أخرى من المهم تحاشيها • فأنا أرى حقا ـ كما جادلت قبلا ، أن ماهو فطرى فى الطبيعة البشرية ، يحتمل ألا يكون قد تغير كثيرا أثناء مئات الآلاف من السنين ، ولكن ما هو فطرى يشكل فقط قطاعا صغيرا من البناء الذهنى للانسان الحديث • ولا أود أن يستنتج أى أحد مما قلته قبلا أنه فى عالم بدون حرب سيكون هناك بالضرورة

شعور بالكبت الغريزى • • فالسويد لم تدخل حربا بالمرة منذ سنة ١٨١٤ ، أى لفترة أربعة أجيال (★) ، ولكنى لا أعتقد أنه يمكن لأحد أن يدعى أن السويديين قد عانوا فى حياتهم الغريزية نتيجة لهذا الالغاء • واذا نجح البشر فى الغاء الحرب ، فلن يكون صعبا ايجاد منافذ أخرى لحب المغامرة والمخاطرة • • ولم تعد المنافذ القديمة ، التى حققت فى وقت ما ـ أغراضا بيولوجية ـ (لم تعد) تفعل هذا حاليا ، ولهذا فالمنافذ الجديدة ضرورية • ولكن ، ليس فى الطبيعة البشرية ما يضطرنا للاستسلام للوحشية المتواصلة • ان دوافعنا الأقل نظامية تكون خطرة فقط عندما نتنكرها أو نسىء فهمها • واذا تم تحاشى هذا الخطأ أمكن حل مشكل تضمينها فى نظام اجتماعى جيد ، بالاستعانة بالذكاء وحسن النية •

(★) يلاحظ تاريخ المحاضرات (٤٨ ـ ١٩٤٩) (المترجمة) •

ـ ٣ ـ

(دور الفـردية)

اقترح في هذه المحاضرة أن أبحث ـ في الأهميـة من حيث كل من الخير والشر ، للحوافز والرغبات التى لها علاقة ببعض اعضاء المجتمع وليس بكلهم • فالصيد والحرب أنشطة يمكن لرجل أن ينجح فيها أكثر من رجل آخر ، ولكن الـكل فيها يتقاسمون غرضـا مشتركا ـ وطالمـا كانت الانشـطة التلقائية للانسان من النوع الذى توافق عليه وتشترك فيه كل القبيلة ، فان سبقه لا يصادف كبحا كثيرا من الاخـرين داخل القبيلة ، وحتى حركاته الأكثر تلقائية تتـوافق مـع نمط السلوك المعترف به •

ولكن بازدياد تحضر الناس ، يظهر اختلاف متزايد بين أنشطة رجل وآخر ، والمجتمع يحتاج ، كشرط لرخائه ، عددا معينا من الأفراد الذين لا يتوافقون تماما مع النوع العام • وعمليا ، فكل تقدم فنى أو أخلاقى أو ذهنى ، قد اعتمد قبلا على مثل أولئك الأفراد الذين كانوا ومازالوا عاملا حاسما فى فترة الانتقال من الهمجية الى الحضارة • واذا كان على مجتمع ما أن يحرز تقدما ، فانه يحتاج الى أفراد استثنائيين ، تكون أنشطتهم ـ بالرغم من كونها مفيدة ، مغايرة للنـوع الذى يجب أن يكون عاما • وهناك دائما، في المجتمع فائق التنظيم، ميل لاعاقة أنشطة مثل هؤلاء الأفراد بافراط ، ولـكن من جهة أخرى ـ اذا لم يمارس المجتمع أى رقابة ، فان نفس نوع السبق الفردى ، الذى يجوز أن ينتج مجـددا قيما ، يمـكن أيضا أن ينتج مجرما • والمشكل ، مثـل كل المشـاكل التى تصادفنا ، هو مشـكل توازن ، فحـرية أقل من اللازم تأتى بالركود ، وحرية أكثر من اللازم تؤدى الى الفوضى •

وهناك طرق كثيرة يمكن لفرد ما أن يختلف فيها عن أغلب الأعضاء الآخرين فى مجموعته • فقد يكون فوضويا أو مجرما بدرجة استثنائية ، وقد تكون له ملكة فنية نادرة ، ويمكن أن يكون له ما يعترف به فى الوقت المناسب كحكمة جديدة فى مسائل العقيدة والأخلاق ، ويمكن أن تكون له قدرات ذهنية استثنائية • ويبدو أنه ، منذ فترة بعيدة جدا فى تاريخ البشرية ، كان لابد من وجود بعض التمييز فى الوظيفة • فالصور الموجودة فى كهوف البرانس (١١) التى صنعها رجال العصر الباليوليثى Paleolithic (١٢) على درجة عالية من الجودة الفنية ، ولا يمكن للمرء أن يفترض بسهولة أن كل الرجال ، فى ذلك الوقت ، كانوا قادرين على مثل هذا العمل الرائع • ويبدو أكثر احتمالا أن أولئك الذين وجدت لديهم ملكة فنية كانوا أحيانا يسمح لهم بالبقاء فى البيت لعمل صور ، بينما باقى أعضاء القبيلة يذهبون للصيد • ولابد أن الرئيس والقسس كانوا قد بدءوا منذ وقت بعيد جدا يختارون لميزات حقيقية أو مفترضة • فرجال الطب كانوا يستطيعون العمل بالسحر ، وكانت روح القبيلة ، بمعنى ما ، مجسدة فى الرئيس • ولكن منذ قديم الزمان ، كان هناك دائما اتجاه لكل نشاط من هذا النوع لأن يصبح فرديا • فالرئاسة فى القبيلة أصبحت وراثية ، ورجال الطب أصبحوا طبقة منفصلة ، والمغنون المعترف بهم أصبحوا نماذج أصلية لأمراء وشعراء عندنا • وكان من الصعب دائما على المجتمعات ، أن تعترف بما هو ضرورى للأفراد الذين سيقومون بالنوع الاستثنائى من المساهمة التى أفكر فيها ، وهى بالذات عناصر الوحشية ، والانفصال عن المجموع ، وتسلط حوافز نادرة عليهم ، حوافز لم تكن فائدتها واضحة للجميع دائما •

وأود أن أبحث فى هذه المحاضرة علاقة الرجل الاستثنائى بالمجتمع ، والظروف التى تجعل من السهل على مميزاته غير العادية أن تكون مثمرة اجتماعيا • سوف أبحث

هذا الموضوع ألا فى الفن – ثم فى العقيدة والأخلاق – وأخيرا فى العلوم ·

فالفنان لا يلعب فى وقتنا الحاضر ، فى الحياة العامة ، دورا بنفس القدر من الأهمية تقريبا مثلما كان يفعل فى عصور كثيرة سابقة · وهناك اتجاه فى أيامنا لازدراء شاعر البلاط ، ولاعتبار أن الشاعر يجب أن يكون شخصا وحدانيا يعلن شيئا لا يرغب العامة فى سماعه · وتاريخيا كانت المسألة مختلفة جدا · فهوميروس وفيرجيل وشيكسبير كانوا شعراء بلاط ، تغنوا بأمجاد قبيلتهم وتقاليدها النبيلة · (بالنسبة لشيكسبير يجب أن أعترف بأن هذا حقيقى جزئيا ، ولكنه ينطبق بالتأكيد على مسرحياته التاريخية) · وقد خلد شعراء ويلز أمجاد الملك آرثر – واحتفل بهذه الأمجاد فيما بعد الكتاب الانجليز والفرنسيون · وقد شجعهم الملك هنرى الثانى لأسباب استعمارية وكانت آمجاد البارثينون وكاتدرائيات العصور الوسطى مرتبطة عن قرب بالموضوعات العامة · والموسيقى – رغم أنها كانت تلعب دورها فى الخطوبة – قامت أولا لتعزيز الشجاعة فى المعركة – وهو غرض – بناء على رأى أفلاطون – ينبغى ان تقتصر عليه قانوننا · ولكن يبقى القليل من أمجاد الفنان العتيقة هذه فى العالم الحديث ، باستثناء زمار الفيلقة فى الهايلاندز (١٣) (سكوتلاندا) ونحن ما زلنا نمجد الفنان ، ولكننا نعزله عنا ، ونفكر فى الفن كشىء منفصل ، لا كجزء مندمج فى حياة المجتمع · والمهندس فقط لأن فنه يخدم غرضا تقنيا ، يحفظ بقدر من مركز الفنان العتيق ·

ولا يرجع تدهور الفن فى وقتنا فقط الى أن الوظيفة الاجتماعية للفنان ليست بالأهمية التى كانت لها فى الأيام السابقة ، بل يرجع أيضا لحقيقة أن السرور التلقائى لم نعد نشعر بأهمية القدرة على الاستمتاع به · فبين الشعوب غير الراقية نسبيا مازالت الرقصات والأغانى الشعبية مزدهرة ، ومازال باقيا فى كثير من الناس جزء من الشاعر – ولكن

بازدياد تحول الرجال الى صناع ومجندين ، يصبح نوع المتعة العام عند الأطفال مستحيلا بالنسبة للبالغين ، لأنهم يفكرون باستمرار في الشيء القادم ، ولا يمكنهم ان يتركوا انفسهم يندمجون في اللحظة الحاضرة .

وهذه العادة من التفكير في الشيء القادم ، قادرة على القضاء على أي نوع من التميز الجمالي ـ أكثر من أي عادة ذهنية أخرى يمكن تصورها . واذا قدر للفن أن يبقى ، بأي معنى مهم ، فلن يكون ذلك بانشاء أكاديميات جادة ، ولكن باعادة الاستحواذ على القدرة على المسرات والأحزان التي تغمر القلب ، والتي قضت عليها جميعا عادات الحيطة والنظر لبعيد .

ولقد كان الرجال المعترف بهم تقليديا كعظماء البشرية مجددين دائما في العقيدة والأخلاق . وبالرغم من القدسية التي نسبت اليهم في العصور التالية ، فقد عاش أغلبهم حياتهم في صراع ـ بدرجة كبيرة أو صغيرة ـ مع مجتمعاتهم هم . وقد قام التقدم الأخلاقي أساسا على الاعتراض على العادات القاسية ، ومحاولات توسيع مجالات التعاطف البشري . وقد اختفت التضحية بالبشر كليا بين الاغريق في بداية الحقبة التاريخية ـ ونادت تعاليم الرواقيين stoics (١٤) بوجوب قيام التعاطف ليس فقط بين الاغريق الأحرار ولكن أيضا بين البرابرة والعبيد ـ وفي الواقع بين كل البشر . ونشرت كل من البوذية والمسيحية نظرية مشابهة على رقعة بعيدة ومتسعة . واتخذت العقيدة ، التي كانت أصلا جزءا من جهاز التماسك القبلي، تشجع على الصراع في الخارج بنفس درجة التعاون في الداخل ـ (اتخذت) صبغة أكثر عالمية ، وحاولت الارتفاع على الحدود الضيقة التي كانت الأخلاقيات البدائية قد وضعتها . ولا غرابة في أن المجددين في العقيدة كانوا ممقوتين في عصرهم ، اذ كانوا يسعون لحرمان الناس من متعة القتال ومن متع الثأر الوحشية .

والوحشية البدائية ، التي كانت قد بدت كفضيلة ،

غدت حينئذ تعد رذيلة ، وأدخلت ازدواجية مفرطة بين الأخلاقيات وبين الحياة الغريزية ، أو بالأحرى بين الأخلاقيات التى لقنها أولئك الذين كانت النزوات البشرية قوية لديهم وبين الأخلاقيات التقليدية التى كان يفضلها أولئك الذين لم يكن لديهم ، أى تعاطف مع غيرهم خارج مجتمعهم • ولقد كان للمجددين فى العقيدة والأخلاق أثر بالغ على الحياة البشرية ، ولو أنه لم يكن دائما ـ كما يجب علينا أن نعترف ـ الأثر الذى كانوا يهدفون لتحقيقه ـ ولكنه على العموم كان مفيدا جدا •

وحقيقى أننا ـ فى القرن الحالى ، رأينا فى أجزاء مهمة من العالم ، ضياعا لقيم أخلاقية كنا نظنها فى أمان تام ، ولكن لنا أن نؤمل ان هذا التراجع لن يدوم طويلا • ونحن ندين به للمجددين الأخلاقيين ، الذين حاولوا فى البداية أن يجعلوا الأخلاقيات مسألة عالمية ، لا مجرد قبلية ، بحيث استحدثوا اعتراضا على العبودية ، وشعورا بالواجب نحو أسرى الحرب ، وتحديدا لسلطات الأزواج والآباء ، واعترافا (ولو كان غير كامل) بأن الشعوب المستعبدة لا يصح أن تكون مجرد موضع استغلال لفائدة مخضعيها • وجدير بنا أن نعترف أن كل هذه المكاسب الأخلاقية قد تعرضت للخطر مع عودة الوحشية القديمة ، ولكنى لا أظن أن التقدم الأخلاقى الذى كانت تمثله سيضيع فى النهاية على البشرية •

والأنبياء والحكماء الذين بدءوا هذا التجديد الأخلاقى ، بالرغم من أن أغلبهم لم يلق التكريم أثناء حياتهم ، فانهم لم يمنعوا مع ذلك من أداء عملهم • وفى الدول الشمولية totalitarian (١٥) الحديثة أصبحت الأمور أسوأ مما كانت عليه فى زمن سقراط (١٦) أو فى زمن الانجيل Gospels (١٧). ففى الدول الشمولية totalitarian لا يتعرض المجدد الذى تكره الحكومة آراءه فقط للاعدام ، وهى مسألة قد لا يبالى بها الرجل الشجاع ، بل انه يحرم كليا من العمل على نشر مذهبه • والتجديدات فى مجتمع كهذا

يمكن أن تأتي فقط من جهة الحكومة ، والحكومة الآن ــ كما كانت في الماضي ، لا يحتمل أن توافق على شيء يتعارض مع مصالحها المباشرة • وفي الدولة الشمولية Totalitarian • تكون أحداث مثل ظهور البوذية أو المسيحية ، شبه مستحيلة ، ولا يمكن لأى مصلح ، حتى بأكثر قدر من البطولة ، أن يحقق أى فاعلية بالمرة • وهذه حقيقة جديدة في تاريخ البشر ، استحدثت بفضل التحكم المتزايد بدرجة كبيرة في الأفراد ، وجعلها النظام الحكومي الحديث ممكنة ــ وهي حقيقة مهمة جدا ، تبين الى أى درجة يمكن للنظام الشمولي أن يقضى على أى نوع من التقدم الأخلاقي •

وفي زمننا نحن لا يؤمل فرد له قدرات استثنائية في مستقبل عظيم أو فعالية اجتماعية واسعة ، مثلما كان ممكنا في الماضي ، اذا تفرغ للفن أو للاصلاح الديني والأخلاقي • ومع ذلك فمازالت هناك أربعة أنواع من المستقبل متاحة له ، اذ يمكنه أن يصبح قائدا سياسيا عظيما ، مثل لينين ، ويمكنه أن يحقق سطوة صناعية ضخمة مثل روكيفيلر ، ويمكنه أن يغير العالم باكتشافات علمية ــ كما يحدث الآن من قبل علماء الطبيعة الذرية ، أو أخيرا ــ اذا لم تكن لديه القدرات الضرورية لتحقيق أى من أنواع المستقبل هذه ، أو ان كانت الفرصة غير سانحة فيمكن لنشاطه في غياب منفذ آخر ، أن يدفعه الى حياة الجريمة • والمجرمون بالمعنى القانوني ، يندر أن يكون لهم تأثير على مجرى التاريخ ، فمن شأن الرجل ذى الآمال العريضة أن يختار مستقبلا آخر اذا أتيح له •

وارتقاء رجال العلوم مراكز مرموقة في الدولة ظاهرة حديثة • فالعلميون مثل باقي المجددين ، كان عليهم أن يحاربوا ليعترف بهم : وقد نفى بعضهم ، وأحرق بعضهم ، وسجن بعضهم في زنزانات وآخرون أحرقت كتبهم فقط • ولكن بالتدريج ، تبين انهم يمكن أن يضعوا سلطة في يد الدولة • وفي الحرب الحديثة اعترفت كل الحكومات المتحضرة بالعلماء كأكثر الموظفين فائدة ، بافتراض انه يمكن

ترويضهم وارغامهم على وضع خدماتهم تحت تصرف حكومة واحدة بدلا من وضعها تحت تصرف كل البشر ٠

وســـواء أكان للخير أو للشر فيرجع تقريبـــا كل ما يميز عصرنا عما سبقه الى العلم ٠ ففى حياتنا اليوميـــة ، لدينـــا النور الكهربائي والراديو والسينما ٠ وفى الصناعة تستعمل ماكينات وقوى ندين بها للعلم ٠ وبسبب زيادة انتاج الأيدى العاملة نستطيع تخصيص نسبة أكبر من طاقاتنا للحروب ، والاستعدادات للحروب عما كان ممكنا من قبل ، ونستطيع ابقاء الصغار في المدارس وقتا أطول بكثير مما كنا نفعـــل قبلا ٠ وبفضل العلم نستطيع نشر الأنباء والمعلومات المضللة عن طريق الصحافة والاذاعة لكل فرد تقريبا ٠ وبفضل العلم نستطيع جعل الهـــرب ، بالنسبة لأناس تكرههم الحـــكومة ، أكثر صعوبة عما كان قبلا ٠ وكل حياتنا اليومية ، وتنظيمنا الاجتماعى ــ هى ما هى عليه ، بفضـــل العلم ٠ وكل هـــذا التطور الشاسع تدعمه الدولة فى الوقت الحاضر ، ولكنه نما فى البداية متعارضا مع الدولة ٠ وحيث عادت الدولة ، كما فى روسيا (★) ، الى نظام سابق ، فسوف تظهر من جـــديد المعارضة القديمة ، اذا لم تكن الدولة مهيمنة بدرجة لم يحلم بها طغاة العصور السالفة ٠

ولم تكن المعارضة للعلوم فى الماضى مستغربة ٠ فقـــد أكد رجال العلم أمورا كانت مناقضة لما اعتقده الجميع من قبل ــ فقلبوا آراء اعتنقت قبلا ، واعتبروا كفـــارا ٠ وقد أعلن أناكساجوراس ان الشمس حجر أحمر ســـاخن ، وأن القمر صنع من الأرض ــ وبسبب هذا « الـــكفر » نفى من أثينا ٠ اذ ألم يكن معلوما أن الشمس اله ، وأن القمر الهة ؟ وكانت الســـطوة عـــلى قوى الطبيعة ، التى منحها العلم هى فقط التى أدت قليلا قليلا الى التسامح مع العلماء ، وحتى هـــذه ، كانت عملية بطيئة جـــدا ، لأن قدراتهم كانت فى البداية منسوبة للسحر ٠

(★) يلاحظ أن المقصود هنا « الاتحاد السوفيتي » الذى انهار أخيرا ٠ وهذا تنبؤ بما حدث فيه قبل انهياره ٠ (المترجمة)

ولن يكون مستغربا أن تنشأ فى الوقت الحاضر ــ حركة قوية مناهضة للعلوم ، كنتيجة للأخطار التى تتعرض لهـا الحياة البشرية بفعل القنابل الذرية ، والتى يمكن أن تسببها الحرب الميكروبية • ولكن مهما يكن شعور النـاس بالنسبة لهذه الأهوال ، فانهم لا يجرؤون على التحول ضد رجال العلم، طالما كانت الحرب محتملة بأى شكل ــ ذلك أنه اذا كان أحد الطرفين مزودا بالعلماء دون الطرف الآخر ، فيكاد يكون من المؤكد أن الجانب العلمى سوف يكسب •

والعلم ، بقدر تأسيسه عـلى المعرفة ، يجب اعتباره ذا قيمة ، ولكن بقدر اعتماده عـلى التقنيـة ، تتوقف جدارته بالمديح أو اللوم على استعمال التقنية • وهـو فى حـد ذاته محايد ، لا خير ولا سيىء ، وأى آراء نهائية يمكن اتخاذها عما يعطى قيمة لهذا أو ذاك يجب أن تأتى من مصدر غير العلم •

ورجال العلم ، بالرغم من تأثيرهم العميق عـلى الحيـاة الحديثة ، هم بطـرق ما ، أقل سطوة من رجال السياسـة • والسياسيون فى وقتنا الحاضر أكثر فاعلية بقدر كبير عما كانوا عليـه فى أى فترة سـابقة فى التـاريخ البشرى • وعلاقتهم برجال العلم مثل علاقة الساحر فى «ألف ليلة وليلة» بالجن الذى يطيع أوامره • ويفعل الجن أعمالا مذهلة ، لم يكن الساحر ليستطيع فعلها بدون مساعدته ، ولكنه يفعلها فقط لأنه مأمور بفعلهـا ، وليس بسـبب اى دافع داخلى • وهكذا الحال بالنسبة لعلماء الذرة فى وقتنا الحاضر : تضع حكومة ما يدها عليهم فى مسـاكنهم أو فى عرض البحـار ، وتأمرهم بالعمل ، حسب نجاح الأسر ، ليصبحوا عبيدا لأحد الطرفين أو الطرف الآخر • ورجل السياسة ــ عنـدما يكون ناجحا ــ لا يتعرض لمثل هذا الاكراه •

وفى عصرنا الحاضر كانت سيرة حياة لينين مثيرة للدهشة أكبر من أى سيرة أخرى • فبعد أن أعدم أخوه على يد الحكومة القيصرية، قضى سنوات فى الفقر والمنفى، ثم نهض فى خلال شهور قليلة ليرأس واحدة من أعظم الدول • ولم تكن هـذه

الرئاسة ، مثل رئاسة شركيس(١٨) أو قيصر، مجرد سلطة للاستمتاع بالترف والتملق ، التى لولا وجوده لاستمتع بهـا رجل غيره • ولكنها كانت سلطة لتشكيل اقليم شاسـع بنـاء على نمط أبدعه فى ذهنه هو ، ليعـدل حيـاة كل عامل وكل مزارع ، وكل شخص ينتمي للطبقة الوسطى ، وليَدخل نوعا جديدا تماما من التنظيم ، ويصبح رمزا للنظام الجديد فى طول العالم وعرضه ، يعجب به البعض ، ويشجبه كثيرون ، ولكن لا يجهله أحد • وليس فى طاقة أى حلم لمجنون بالعظمة أن يكون أكثر روعة •

وكان نابليون ، من قبل ، قد أكد أنك تستطيع فعل كل شيء بحرابك الا أن تجلس عليها ، أما لينين فقد أثبت بطلان الاستثناء •

ولقد كان الرجال الذين برزوا فى التاريخ اما محسنين للبشر واما عكس ذلك تماما • وكان البعض مثـل عظمـاء المجددين فى العقيدة والأخلاق ، قد فعلوا كل ما فى وسعهم ليجعلوا الناس أقل قسوة بعضهم مع بعض ــ وأقل تحفظا فى تعاطفهم • والبعض الثانى مثل رجال العلم ، أعطونا معرفة وادراكا للعمليات الطبيعية ، وهى مهما أسيء استعمالها ، جديرة بأن يعترف بها حد ذاتها كأشياء رائعة • والبعض الثالث مثل عظماء الشعراء والمؤلفين والرسامين ، أتاحـوا فى العالم ضروبا من الجمـال والروعة تؤدى الـكثير ــ فى أوقات المعاناة ــ لجعل مشهد المصير البشرى محتملا • ولكن بعضا آخر متساوين معهم فى المقدرة وفى التأثير بطـرقهم الخاصة ــ قد فعلوا العكس تماما • وأنا لا أستطيع التفكير فى أى مكسب حققه البشر بوجود جنجزخان ، ولا أعرف أى خير جاء من روبسبير(١٩) ، وبالنسبة لى شخصيا لا أجد سببا للامتنان من لينين •

ولكن هؤلاء الرجال جميعـا ، خيرين وشريرين معـا ، كانوا يتصفون بصفة لا أحب أن تختفى من العـالم ، وهى صفة النشـاط والسـبق والاستقلال فى التفـكير والرؤية

التصورية · والشخص الذى يتصف بهذه الصفات قادر على عمل خير كثير ، أو اتيان ضرر جسيم ، واذا أردنا للبشر ألا يركن للخمول ، فلابد أن يجد هؤلاء الرجال الاستثنائيون مجالا — ولو اننا نتمنى أن يكون هذا المجال مكرسا لخير البشرية ·

وقد يكون الاختلاف أقل مما نظن أحيانا ، بين نفسيتى مجرم كبير وسياسى عظيم · وربما لو قام ساحر باستبدال كابتن كيد (٢٠) والاسكندر الأكبر كل منهما بالآخر ، عند ولادتهما — لحقق كل منهما الحياة والمستقبل، اللذين حققهما الآخر فى الواقع · ويمكن قول نفس الشىء عن بعض الفنانين : فمذكرات بنفيوتو شيلليني لا تعطى صورة رجل يكن الاحترام للقانون مثل ما نتوقعه من كل مواطن سليم التفكير ·

وفى العالم الحديث — وحتى أبعد من ذلك — فى عالم المستقبل القريب بقدر ما يسمح لنا بالتخمين — يكاد يكون وسيصبح مستحيلا ، على الفرد أن يؤدى انجازا مهما ، اذا لم يستطع الهيمنة على مؤسسة ضخمة · فان كان فى وسعه أن يجعل من نفسه رئيسا لدولة مثل لينين ، أو محتكرا لصناعة عظمى مثل روكيفيللر ، أو مراقبا لحسابات بنك مثل بيير بونت مورجان الكبير ، لأمكنه احداث تأثيرات ضخمة فى العالم · وبالمثل يمكنه ، لكونه عالما ، أن يقنع حكومة ما ، بأن عمله يمكن أن يكون مفيدا فى الحرب ·

ولكن الشخص الذى يعمل بدون مساعدة احدى المؤسسات ، كنبى يهودى (عبرى) أو شاعر أو فيلسوف منعزل مثل سبينوزا ، لا يمكنه فيما بعد أن يؤمل فى نوع الأهمية التى كانت لهؤلاء الناس فى الأزمنة السابقة · ويصدق التغيير على العلماء كما يصدق على الأشخاص الآخرين · فقد أدى علماء الماضى عملهم الى حد كبير كأفراد ، ولكن عالم يومنا يحتاج الى معدات باهظة التكاليف ، ومعمل تجارب به العديد من المساعدين · ويمكنه الحصول على كل هذا بكسب رضى

الحكومة ، أو في أمريكا ، من أشخاص بالغي الثراء • وهكذا لا يكون بعد ذلك • عاملا مستقلا، ولكن أساسا جزءا لا يتجزأ من احدى المؤسسات الكبرى • وهذا التغيير مؤسف للغـاية ، لأن الأعمال التي كان رجل عظيم يستطيع أداءها في عزلة ـ كان من شأنها أن تكون أكثر نفعا من تلك التي يستطيعها فقط بمساعدة السلطات الأخرى• والشخص الذي يرغب في التأثير على شئون البشر يجـد النجـاح صـعبا الا كعبد أو كمستبد • فرجل سياسة يمكنه أن يجعل نفسه رئيسا لدولة، وكعالم قد يبيع مجهوده للحكومة ، ولكنـه في هـذه الحالة يتحتم عليه أن يخدم أغراضها هي لا أغراضه هو •

وينطبق هذا ليس فقط على الأشخاص ذوى القـدرات النادرة والاستثنائية ، ولكن على مجال واسع من المواهب • وفي العصور التي عاش فيها شعراء عظام كانت هناك أيضا أعداد غفيرة من صغار الشعراء • وعندما كان هناك رسامون عظام ، كانت هناك أيضا أعداد كبيرة من صغار الرسامين • والملحنون الألمان العظام نشأوا في بيئة كان للموسيقى فيهـا شأن عظيم ، ووجد العديد من الرجال الأقل مقدرة فرصـا للعمل •

وفي تلك الأيام كان الشعر والرسم والموسيقى تشـكل جميعها جزءا جوهريا من الحياة اليومية للرجال العاديين ، كما هي الحال بالنسبة للرياضة فقط الآن • وعظماء الأنبياء كانوا اشخاصا برزوا من بين العديد من غيرهم الأقل عظمة • والعجز في عصرنا ـ في مثل هذه الأمور ، هو نتيجة حتمية لحقيقة أن المجتمع ممركز ومنظم لدرجة أن السبق الفردي ينخفض الى أدنى حد •

وحيثما ازدهر الفن في الماضي حدث ذلك كقاعدة بين مجتمعات صغيرة كان لها منافسون بين جيرانها ـ مثل حكام دول المدن الاغريقية ، والولايات الصغيرة في عصر النهضـة الايطالية ، وبلاطات صغار الملوك الألمان في القرن الثامن عشر • وكان لا غنى لـكل من هـؤلاء الحـكام عن عازف

للموسيقى · وفي احدى المرات كان العازف جوهان سباستيان باخ(٢١)ـ وحتى ان لم يكن هذا ـ فقد كان مع ذلك حرا في تقديم أجود ما يستطيع تقديمه · وكان للمنافسة المحلية شأن جوهرى في مثل هذه الأمور · وقد لعب دوره حتى في بناء الكاتدرائيات ، لأن كل قسيس أراد أن تكون له كاتدرائية أروع من جاره (القسيس) · وكان من المستحب أن تستطيع كل مدينة تطوير ذوق فنى خاص ، يؤدى بهم جميعا الى تنافس متبادل ، وأن تصبح لكل منها مدرستها الخاصة في الموسيقى والرسم ، ولا تخلو من ازدراء قوى للمدرسة الأخرى · ولكن مثل هذه الأنواع من الوطنية المحلية لا تزدهر بسهولة فى عالم الامبراطوريات والتحول الحر · فرجل من مانشستر لا يشعر نحو رجل من شيفيلد مثلما يفعل رجل من أثينا نحو رجل من كورينثيا ، ولا فلورنسى نحو فينيسى ولكن بالرغم من الصعوبات فانى أظن أن هذا المشكل الخاص باعطاء أهمية للمحليات سوف يعالج اذا قدر للحياة البشرية ألا تصبح مملة باطراد ·

ولقد عاش الهمجى ـ بالرغم من انتمائه لمجتمع صغير ـ حياة لم يكن المجتمع يعوق فيها سبقه كثيرا · فالأعمال التى أراد أداءها ـ عادة الصيد والحرب ، كانت أيضا الأعمال التى أراد جيرانه أداءها · واذا شعر بميل لأن يصبح رجل طب كان عليه فقط أن يفوز بحظوة فرد ما تفوق فى هذه المهنة ، وهكذا يخلفه فى قدراته السحرية فىالوقت المناسب · واذا كان شخصا ذا مواهب استثنائية ، فقد يخترع تحسينات ما فى الأسلحة ، أو مهارات فى الصيد · ولن يضعه هذا أو ذاك فى أى موقف متعارض مع المجتمع ، بل ، على العكس ، يمكن أن يكون موضع ترحيب ·

أما الرجل الحديث فيعيش حياة مختلفة تماما ـ فاذا غنى فى الشارع اعتبر سكران ، واذا رقص وبخه الشرطى لأنه يعوق حركة المرور · ويوم عمله ـ اللهم الا اذا كان محظوظا بدرجة استثنائية ـ مشغول كليا بطريقة مملة ، فى

انتاج شيء ذى قيمة ، ليس مثل درع اخيل (٢٢) كعمل فنى جميل ، ولكن أساسا لفائدته • وعندما ينتهى من عمله ، لا يمكنه ، مثل الراعى عند الشاعر ميلتون (أن يروى قصته تحت غصن شجرة (٢٣) الهوثورن « الزعرور البرى » فى الوادى ، لأنه ، فى الغالب ، لا يوجد أى واد فى المكان الذى يعيش فيه ، وان وجد ، فهو ملىء بالعلب الصفيح الفارغة ويكون دائما مهموما بأفكار الغد ــ على طريقة حياتنا البالغة التنظيم •

ولقد أهمل المسيحيون ــ من بين وصايا الانجيل ــ أكثر من غيرها ، الوصية التى تنهى عن التفكير فى الغد • فاذا كان حريصا فان تفكيره فى الغد سيقوده الى الادخار ــ وان كان طائشا فسيجعله متهيبا من أن يكون غير قادر على سداد ديونه • وفى كلتا الحالتين تفقد اللحظة نكهتها • فكل شيء منظم ، وليس هناك شيء تلقائى ، وقد أسس النازيون مبدأ « القوة عن طريق السرور » ولكن « السرور » الذى شخصته الحكومة قد لا يكون سارا جدا •

وبالنسبة لأولئك الذين يمكن أن تكون لهم ــ بطريقة مختلفة ــ تطلعات قيمة ، فان المركزية كفيلة بوضعهم فى موقع التنافس مع عدد ضخم جدا من المتبارين ، والخضوع لمستوى ذوق موحد أكثر من اللازم • فان كنت ترغب أن تكون رساما، فلن تقنع بأن تضع نفسك فى مواجهة الأشخاص ذوى الرغبات المماثلة فى بلدتك ذاتك ، بل ستذهب الى احدى مدارس الرسم فى عاصمة ما ، حيث يحتمل أن تستنتج أنك متوسط القدرات ، وعندما تصل الى هذه النتيجة ، فقد تثبط همتك بدرجة أن تشعر بالاغراء بأن تلقى بفرشاتك بعيدا وتنصرف للاستثمار أو لشرب الخمر ، لأن درجة معينة من الثقة بالنفس أساسية للانجاز • وفى ايطاليا فى عصر النهضة كان فى امكانك أن تؤمل أن تكون أحسن رسام فى سينا(٢٤)، وكان من شأن هذا المركز أن يكون مشرفا جدا • ولكنك لن تقنع الآن باكتساب تدريبك كله فى بلدة صغيرة

واحدة ، وتجلس مواجها لجيرانك • ونحن نعــرف أكثر من اللازم ونشعر أقل من اللازم • وعلى الأقل نحن نشعر أقل من اللازم بتلك المشاعر الخلاقة التى تنبع منها حياة جديدة • ونحن سلبيون بالنسبة لما هو مهم ، وننشط فقط بالنســبة للأمور التافهة • واذا شئنا أن ننقــذ الحيــاة من الملل الذى لا تخففه الا الكوارث ، لتحتم علينا ايجاد وسائل لاســتعادة السبق الفردى ، ليس فقط فى الأمور التافهة ، ولكن فى تلك التى تهم بالفعل : وأنا لا أقصد أنه يتحتم علينا القضاء على تلك القطاعات فى النظام البشرى التى يعتمد عليها البقاء الفعلى لشعوب كبيرة ، ولكنى أقصد أنه يجدر بالنظام أن يكون أكثر مرونة وأكثر تحررا عن طريق الحكم الذاتى المحلى ، وأقل اضطهادا للروح البشرية عن طــريق توســـعه غــير الشخصى ، عما وصل اليه عن طريق نمــوه السريع بدرجة لا تحتمل ، درجة غدت طرق تفــكيرنا وشــعورنا عاجزة عن مسايرتها •



– ٤ –

الصراع بين التقنية والطبيعة البشرية

يختلف الانسان عن باقى الحيوانات فى نواح عديدة – احداها هى أنه أقل ميلا للانشغال بأنشطة غير سارة فى حد ذاتها ، لأنها وسائل لغايات يريدها • وتؤدى الحيوانات أعمالا تبدو فى حد ذاتها من وجهة نظر الباحث البيولوجى أعمالا مغرضة : فالطيور تبنى عشوشها . والسمورات(٢٥) تبنى سدودا – ولكنها تأتى هذه الأفعال غريزيا ، لأن لديها حوافز لفعلها ، لا لأنها تدرك أنها نافعة • وهى لا تمارس التحكم فى النفس ، ولا الحيطة ، ولا بعد النظر ، ولا كبح الدوافع برغبتها • أما البشر فيفعلون كل هذه الأمور • وعندما يؤدون منها قدرا فوق تحمل الطبيعة البشرية ، فانهم يشعرون بمعاناة سيكولوجية • وفى طريقة الحياة المتحضرة لا يمكن تحاشى جزء من هذه المعاناة ، ولكن الكثير منها ليس ضروريا ، ويمكن تحاشيه بنوع مختلف من التنظيم الاجتماعى •

ولم يعان الرجل البدائى من هذا الصراع بين الدوافع والوسائل الا قليلا • اذ كان كل من الصيد والعراك والتكاثر ضروريا فى سبيل البقاء والتقدم التطورى ، ولكن هذا لم يكن السبب فى اشتراكه فى هذه الأنشطة ، بل انه اشترك فيها لأنها كانت تجلب له السرور • وقد أصبح الصيد ، بمرور الوقت ، تسلية للأغنياء غير العاملين ، وكان قد فقد فائدته البيولوجية ، ولكنه بقى مصدرا للمتعة • والعراك من النوع البسيط الذى تولده الحوافز يسمح به الآن فقط للتلاميذ بالمدرسة ، ولكن الولع بالعراك يبقى قائما ، واذا حرم من تنفيس أفضل ، فانه يجد فى الحرب أهم تعبير له •

وعلى أية حال ، لم تخل حياة الرجل البدائى تماما من الأنشطة التى شعر بأنها مفيدة ، بدلا من شعوره داخليا بجاذبيتها • ففى مرحلة مبكرة جدا من التطور البشرى ، بدأ فى صنع الأدوات الحجرية ، وبذلك استهل مرحلة التطور الطويلة التى أدت الى نظامنا الاقتصادى المعقد حاليا • ولكن من المحتمل ، فى العصر الحجرى المبكر ، أن متعتى الابداع الفنى وتزايد السلطة المتوقع ، تخللتا كل مراحل العمل الشاق • وعندما تكون الرحلة بين الوسائل والغايات غير طويلة جدا ، فان الوسائل ذاتها تصبح مصدر متعة ، اذا كانت الغايات مرجوة بشغف • فمن أجل اللحظات القصيرة من اللذة عند الهبوط ، يقبل الصبى على عناء الصعود بطوبوجان (مزلقة) الى قمة التل ، ولا حاجة هنا لأن يحفزه أحد على العمل بجد ، ومهما تململ أو لهث فهو مع ذلك سعيد • ولكن لو وعدته ، بدلا من الجزاء الفورى – بمعاش فى سن السبعين ، فان نشاطه يتضاءل سريعا •

ويمكن الايحاء بجهود أكثر مما يبذلها الصبى بالمزلقة ، عن طريق حافز خلاق ، ويبقى مع ذلك تلقائيا • فقد يقضى أحد الأشخاص سنوات عديدة من الشدائد والخطر والفقر ، فى محاولات لتسلق قمة ايفريست ، أو الوصول الى القطب الجنوبى ، أو اجراء اكتشاف علمى ، ويمكن أن يعيش طول هذه المدة فى انسجام مع دوافعه الذاتية مثل الصبى بالمزلقة ، اذا كان يرغب فى الغاية بشغف ، ويربط كبرياءه بالتغلب على العقبات – ذلك أنه كما قال الهندى الأحمر «فيها مجد» •

وبظهور العبودية بدأ الفصل بين هدف العمل وأهداف العامل ، فقد شيدت الأهرامات من أجل مجد الفراعنة ، ولم يكن للعبيد الذين قاموا بالعمل نصيب فى المجد ، بل انهم عملوا فقط خوفا من سوط المشرف • والزراعة عندما قام بها الرقيق أو عبيد الأرض – بنفس الطريقة – لم تجلب أى رضا لأولئك الذين قاموا بالعمل ، وكان مصدر رضاهم فقط انهم بقوا على قيد الحياة ، وأنهم (لحسن الحظ) لم يتعرضوا لألم بدنى •

وفى العصور الحديثة قبل الانقلاب الصناعى ، حدث نتيجة لتضاؤل العبودية ، ونمو الحرف اليدوية ، أن زاد عدد العمال كرؤساء لأنفسهم، واستطاعوا نتيجة لذلك أن يشعروا ببعض الزهو بما كانوا ينتجون • وكان لهذه الظاهرة الفضل فى ظهور نوع الديموقراطية التى افترضت وجود عدد ضخم من المنتجين المستقلين الى حد ما ، كوضع مناقض لظاهرة المؤسسات الاقتصادية الضخمة التى خلقتها التقنية الحديثة •

ولنأخذ فى الاعتبار مصنعا كبيرا ـ مصنعا للسيارات مثلا ـ فغرض المؤسسة هو صنع السيارات ، ولكن غرض العاملين هو كسب رواتبهم ـ ومن وجهة النظر الشخصية لا يوجد غرض مشترك • والغرض الموحد يقوم فقط بين الملاك والمديرين ، ولا يوجد بالمرة بين غالبية أولئك الذين يؤدون العمل •

وهذا الضرر ـ لا يمكن ـ الى درجة ملحوظة ـ فصله عن التصنيع الآلى ، المرتبط بحجم المؤسسة الكبير ، فبسبب العامل الأول لا يقوم شخص واحد بصنع جزء كبير من السيارة ، بل بنصيب صغير فقط من أحد الأجزاء ، ويتطلب قطاع كبير من العمل مهارة محدودة ، ويكون لذلك مملا كليا • وبسبب العامل الثانى (كبر حجم المؤسسة) فان المجموعة التى تشترك جميعها فى صنع سيارة لا توجد بين أعضائها وحدة ولا شعور بالتكافل مثل ما يوجد بين الادارة والموظفين : وهناك تكافل بين المأجورين ، ويمكن أن يقوم تكافل بين الاداريين • ولكن تكافل المأجورين لا علاقة له بالانتاج • فاهتمامهم ينصب على زيادة الأجور وانقاص ساعات العمل • وقد تشعر الادارة ببعض الفخر بالنسبة للانتاج ، ولكن عندما تصبح صناعة ما تجارية بالكامل ، ينشأ اتجاه للتفكير فى الربح فقط ، وهذا يمكن تأمينه غالبا بطريقة أسهل ، عن طريق الاعلان أكثر منه بواسطة تحسين العمالة •

وقد أدى عاملان الى تضاؤل الزهو بين العمال • وكان

الأول هو اختراع العملة النقدية ، والثانى هو الانتاج على نطاق واسع • فقد نشأ عن العملة النقدية تقييم سلعة ما بناء على سعرها ، الذى هو عامل غير نابع منها ، بل هو شىء مجرد تشترك فيه سلع أخرى ـ والأشياء التى لم تصنع للمبادلة قد يمكن تقييمها لذاتها ، لا لما تستطيع أن تشتريه • وحدائق الأكواخ فى قرى المقاطعات تكون عادة جميلة ، ويمكن أن تكون قد تكلفت جهدا كبيرا ، ولكن ليس الغرض منها أن تحقق أى عائد مالى • وأزياء الريفيين التى لا تكاد تتوفر الآن الا لامتاع السياح كانت تصنعها عائلات من يلبسونها ولم يكن لها ثمن • ومعابد الاكروبوليس وكاتدرائيات العصور الوسطى ، لم تشيد بأى هدف مالى ، ولم يكن فى الامكان مبادلتها • وبتدريج شديد حل الاقتصاد المالى محل اقتصاد كانت السلع فيه تنتج لاستعمال منتجها ، وقد تسبب هذا التغيير فى النظر الى السلع على أنها نافعة بدلا من ممتعة •

وقد دفع الانتاج على نطاق واسع هذه العملية الى أبعاد جديدة • ولنفرض أنك منتج للأزرار ـ فمهما تكن درجة تميز أزرارك ، فانك لا تحتاج الا لعدد محدود لاستعمالك الخاص ، وترغب فى استبدال كل الباقى بالغذاء والمأوى ، وسيارة وتعليم أولادك ، وهكذا • وهذه الحاجيات المتنوعة لا تشترك فى شىء مع الأزرار سوى القيمة النقدية • والواقع أنه حتى القيمة النقدية للأزرار ليست ذات أهمية بالنسبة لك ، والأمر المهم فعلا هو الربح ، أى زيادة سعر بيعها على تكلفة الانتاج ـ وهى التى يمكن أن تزيد نتيجة لانتقاص تميزها الذاتى • والواقع أن فقدان الجودة الذاتية يحدث عادة عندما يحل الانتاج على نطاق واسع محل أساليب أكثر بدائية •

وهناك نتيجتان للتنظيم الحديث ، بالاضافة الى تلك التى سبق ذكرها ، نتيجة لتقليل اهتمام المنتج بالبضاعة الناتجة • واحداهما هى بعد المكسب المتوقع عن العمل ، والثانية هى الفصل بين الادارة والعامل •

وبالنسبة لبعد المكسب ، افترض انك مشغول فى الوقت الحاضر ، فى جزء ثانوى من صناعة سلعة ما للتصدير ، ولنقل مرة ثانية ، سيارة · يقال لك بكثير من التأكيد ان عملية التصدير ضرورة من أجل أن تستطيع شراء الغذاء · والغذاء الاضافى الذى يشترى نتيجة لمجهودك لا يأتى اليك شخصيا ، ولكنه يقسم بين الأربعين مليونا — أو نحو ذلك — الذين يقطنون بريطانيا · واذا تغيبت عن العمل يوما واحدا ، فلن يترتب على ذلك أى أذى مرئى للاقتصاد القومى · ولا يتيسر لك الا بجهد ذهنى ، أن تدرك الأذى الذى تجلبه بسبب عدم العمل ، كما لا يمكنك ، الا بجهد أخلاقى أن تؤدى عملا أكثر من اللازم فى سبيل الاحتفاظ بوظيفتك · والأمر برمته يختلف تماما عندما تكون الحاجة واضحة وملحة ، مثلا فى حالة غرق سفينة · ففى حالة غرق السفينة يطيع البحارة الأوامر بدون حاجة لابداء الأسباب فيما بينهم ، لأنهم يشتركون فى غرض ليس بعيدا عنهم ، ووسائل تحقيقه ليست صعبة الادراك · ولكن اذا كان القبطان مضطرا — مثل الحكومة — لشرح أسس العملية ليبرهن على حكمة أوامره لغرقت السفينة قبل أن ينتهى من محاضرته ·

ولانفصال الادارة عن العامل مظهران : أحدهما هو الصراع المألوف بين رأس المال والعمل ، بينما الثانى هو هم أكثر شمولا ، ويصيب كل المؤسسات الكبرى · وأنا لا أنوى ذكر أى شىء عن الصراع بين العمل ورأس المال ، ولكن بعد الحكومة سواء فى تنظيم سياسى أو اقتصادى ، وفى كل نظام رأسمالى أو اشتراكى ، هو موضوع أقل تداولا ويستحق أن يبحث ·

ومهما تكن درجة تنظيم المجتمع ، فهناك لا محالة دائرة صراع كبيرة بين المصلحة العامة ومصلحة هذا القطاع أو ذاك · فزيادة ما فى سعر الفحم قد تكون مفيدة لصناعة الفحم ، وتسهل زيادة أجور المناجم ، ولكنها ليست مفيدة لكل من عداهم · وعندما تحدد الأسعار والأجور من قبل

الحكومة ، فلابد لكل قرار أن يخيب أمل شخص ما • والاعتبارات التي ترجح كفة الحكومة عامة للغاية ، وبعيدة ظاهريا عن الحياة اليومية للعمال ، لدرجة أنه من الصعب جعلها مقنعة • والمزية المركزة تحظى بالتقدير أكثر من الضرر المنتشر • ولهذا النوع من الأسباب تجد الحكومة مقاومة التضخم أمرا صعبا ، وفي حالة استطاعتها ذلك ، تتعرض لفقدان شعبيتها • والحكومة التي تتصرف بدون زيف لخدمة مصالح الشعب عامة تعرض نفسها لخطر أن تعد - لدى كل قطاع - متجاهلة ومجافية لصالح ذلك القطاع • وهذه صعوبة ، تميل - في حكم ديمقراطي - الى التفاقم مع كل زيادة في درجة الرقابة الحكومية •

وعلاوة على ذلك فاننا نكون متفائلين أكثر من اللازم ، أن نتوقع من الحكومات ، حتى ان كانت ديموقراطية أن تفعل دائما الأفضل للصالح العام • وقد تحدثت قبلا عن بعض المساوىء المرتبطة بالبيروقراطية ، وأود الآن أن أبحث تلك المساوىء المتضمنة في العلاقة بين الموظف والجمهور •

ففي أى مجتمع بالغ التنظيم ، تكون لأولئك الذين يؤدون أعمالا حكومية - بدءا بالوزراء ونزولا الى أصغر الموظفين في المكاتب المحلية (تكون) لهم مصالحهم الشخصية ، وهي التي لا تتمشى مطلقا مع مصالح المجتمع • ويكون أهم هذه المصالح حب السلطة وكره العمل • فالموظف المدني الذى يقول لا ، لمشروع ما يشبع فورا حبه لممارسة السلطة ، وعدم استعداده لبذل الجهد • وهكذا يبدو ، ولدرجة معينة يصبح ، عدوا لأولئك المفروض أن يعمل لأجلهم • ولنأخذ على سبيل المثال ، الاجراءات اللازمة للتعامل مع أزمة الغذاء • فان كنت تملك حصة ، فان صعوبة الحصول على الغذاء قد تقودك لأن تعمل أكثر اذا كان مسموحا لك أن تستعمل انتاجك لاضافته الى أنصبتك التموينية - ولكن أغلب الناس باستثناء من يعملون بالزراعة ، يتعين عليهم شراء كل غذائهم • واذا تركت الأمور دون تدخل ، فان الأسعار سترتفع

كثيرا ، وسيعانى الكل، باستثناء الأغنياء ، من الجوع بدرجة خطيرة • ولكن رغم صدق هذا ، فان القليلين منا هم الذين يشعرون بالامتنان المناسب لخدمات السيدات العاملات فى مكاتب الغذاء ــ وأقل من هؤلاء هم الذين يستطيعون ــ نتيجة للتعب والقلق ، الاحتفاظ بموقف كريم تماما نحو الجمهور• ومن وجهة نظر الجمهور تبدو السيدات (ظلما) مستبدات بجهل ــ وفى نظر السيدات يبدو الجمهور غبيا ومحتجا ، وهم يفقدون الاشياء ويغيرون عناوينهم باستمرار • وليس من السهل رؤية كيف يمكن ــ من موقف كهذا ــ تحقيق انسجام حقيقى بين الحكام والمحكومين • ولقد بقيت الوسائل التى اكتشفت حتى الآن لتحقيق انسجام جزئى بين المشاعر الخاصة والمصالح العامة ، معرضة لاعتراضات بأنواع مختلفة •

وأسهل وأوضح عامل انسجام هو الحرب • ففى حرب صعبة ، عندما يتعرض الحفاظ على الذات القومى للخطر ، يكون من السهل ارغام الجميع على العمل بارادة ، واذا اعتبرت الحكومة كفئا ، فان أوامرها تطاع عن طيب خاطر• والموقف مماثل لهذا عند غرق السفينة • ولكن ما من أحد مستعد لتحبيذ حوادث غرق السفينة كوسيلة للارتقاء بالنظام فى البحر، ولا يمكننا نحن أن نحبذ الحروب على أساس أنها تجلب وحدة قومية •

ولا شك أنه يمكن احداث شىء بنفس الأثر باثارة الخوف من الحرب ، ولكن اذا استمر الخوف من الحرب شديدا فترة كافية ، فمن المؤكد أن تنتج عنه حرب فعلية ، وبينما تعزز الوحدة القومية فانه أيضا يسبب التراخى والعصبية التى لا سبيل لكبحها •

والتنافس ، أينما يوجد ، حافز بالغ القوة • ولقد شجبه علماء الاجتماع عامة كواحد من العوامل الضارة فى مجتمع

رأسمالى ولكن الحكومة السوفيتية (★) أعادته الى مركز مهم فى تنظيم الصناعة • وطرق ستاكهانوفيل ، التى يجزى فيها عمال معينون على كفاءتهم الاستثنائية ، بينما يعاقب آخرون لسلبياتهم ، هى احياء لنظم العمل بالقطعة التى هاجمتها اتحادات العمال بقوة ونجاح • وليس عندى أدنى شك فى ان هذه النظم لها فى روسيا المزايا التى طالب بها الرأسماليون قبلا ، والعيوب التى أكدتها اتحادات العمال • وهى بالتأكيد غير مناسبة كحل للمشكلات السيكولوجية •

ولكن بالرغم من أن المنافسة ، فى أشكالها العديدة ، تتعرض لاعتراضات حادة ، فانى أرى ان لها دورا سياسيا تلعبه فى تعزيز الجهد اللازم ، وفى بعض المجالات يمكن أن تهيىء منفذا ، غير مؤذ نسبيا ، لذلك النوع من الدوافع التى قد تؤدى ، بدونها للحرب • ولا يمكن لاى شخص أن ينادى بالغاء المنافسة فى المباريات • فاذا قرر فريقا كرة متنافسان أن يتعاونا ، بتأثير الحب الأخوى ، فى وضع الكرة أولا خارج أحد الأهداف ، ثم خارج الهدف الآخر ، فلن يزيد ذلك من سعادة اى شخص ، وهناك أكثر من سبب لقصر الحماس المستمد من المنافسة على البطولات الرياضية • فالمفاضلة بين الفرق أو المحليات أو المنظمات يمكن أن تكون حافزا مفيدا ، ولكن اذا شئنا للمنافسة ألا تصبح قاسية أو مؤذية ، فان عقوبة الفشل يجب ألا تشكل كارثة ، كما يحدث فى الحرب، أو مجاعة ، كما يحدث فى المنافسة الاقتصادية غير المحكمة ، بل فقدان الزهو فقط • ولا تصبح لعبة كرة القدم رياضة مرغوبا فيها اذا أعدم الفريق المغلوب أو ترك ليموت جوعا •

وفى بريطانيا ، جرت فى السنوات الأخيرة ، محاولة شهمة للتوجه الى الشعور بالواجب • والصداقة ، لابد منها فى الوقت الحاضر ، وزيادة الانتاج هى الطريق الوحيد للخروج من المأزق • وهذا لا يمكن انكاره ، ونداء من هذا

(★) يلاحظ أن المحاضرات ألقيت قبل سنة ١٩٥٠ • وكان هذا الاسم متداولا حتى ١٩٩١ • المترجمة •

النوع ضرورى بلا شك في وقت الأزمة • ولـكن الشـعور بالواجب ، رغم كونه أحيانا قيما ولا غنى عنه ، فهـو ليس حلا دائمـا ، ولا يحتمـل أن ينجح على أمد طـويل • فهـو يرتبط بشعور الكبت ، ومقاومة مستمرة للدوافع الطبيعية، وهي التي ان استمرت لابد وأن تكـون مرهقة ، وأن ينتج عنها تناقص فى النشاط الطبيعى • واذا روجنا لها ــ عـلى أساس مبدأ أخلاقي تقليـدى بسـيط مثـل الوصايا العشر Ten Commandments ولـكن عـلى أسـس اقتصـادية وسياسية معقدة ، فان الارهاق سيؤدى الى التشـاؤم بالنسبة للمناقشات المتصلة بها ، وسوف يصبح الـكثير من النـاس ببساطة ، اما غير مبالين ، أو يعتنقون نظرية ما غير صادقة ، توحى بأنه يوجد طريق أقصر للرخاء • ويمكن تنشيط الناس بالأمل أو دفعهم بالخوف • ولكن الأمل والخوف يجب أن يكونا قويين وفوريين اذا شئنا أن يكـونا مؤثرين دون أن يسـببا ارهاقا •

وقد يكون هذا سببا جزئيا لكون الدعاية الهستيرية ، أو على الأقل الدعاية المقصود بها اثارة الهستيريا ــ لهـا كل هذا التأثير المنتشر على نطاق واسع فى العالم الحديث• فالناس يعلمون ــ بطريقة عامة ــ أن حياتهم اليومية تتأثر بالأحداث التى تجرى فى قطاعات بعيدة من العالم ، ولكنهم ليسوا ملمين بالمعرفة اللازمة لفهم كيفيـة حـدوث ذلك ، اللهـم الا فى حالات عدد محدود من الخبراء • لماذا لا يوجد أرز ؟ ولمـاذا يكون الموز نادرا ؟ ولماذا لم يعـد ــ كمـا يبـدو ــ للثيران ذيول (★) ؟ واذا انحيت باللوم عـلى الهنـد ، أو الشريط الأحمر ، أو الدولة الرأسـمالية ، فانك تخلق (بطريقـة السحر) فى عقول الناس شخصية شيطان أسطورى من السهل كرهه • وفى كل كارثة هناك حافز طبيعى للبحث عن عـدو لننحى عليه باللائمة ، ويرجـع الهمجيـون ، كل الأمراض للسحر العدائى • وكلما كانت متاعبنا أصعب من أن نفهمها،

(★) ذيل الثور Oxtail تصنع منه حساء محببة للانجليز

فاننا نميل لارجاعها الى هذا التفسير البدائى • والجريدة التى تقدم لنا وغدا لتكرهه لها شعبية تفوق بكثير شعبية تلك التى تتعمق فى تعقيدات أزمة الدولار • وعندما عانى الألمان بعد الحرب العالمية الأولى اقتنع كثير منهم أن اللوم يقع على اليهود •

والالتجاء الى كراهية عدو مزعوم كتبرير لأى حدث مؤلم فى حياتنا يكون فى العادة مدمرا وشؤما ، فهو يحفز النشاط الغريزى البدائى ، ولكن بطرق تكون نتائجها من نوع الكوارث •

وهناك وسائل مختلفة لتقليل الاندفاع نحو الكراهية • وأفضل وسيلة ، بوضوح كلما كان ذلك ممكنا ، هى معالجة أو ازالة المساوىء التى تجعلنا نبحث عن عدو •

وحيثما يتعذر تحقيق هذا ، قد يكون ميسورا أحيانا أن ننشر على نطاق واسع ، تفهما حقيقيا للأسباب التى تنتج عنها أنواع المعاناة • ولكن هذا يكون صعبا طالما وجدت مؤثرات قوية فى السياسة وفى الصحافة ، وهى القوى التى تزدهر بتشجيع الهستيريا •

وأنا لا أرى ان المعاناة فى حد ذاتها تنتج نوع الكراهية الهستيرى الذى أدى مثلا ، الى ظهور التازيين• فلابد ان يكون هنك شعور بالكبت الى جانب المعاناة • فعائلة روبنسون السويسرية ، التى تجد الكثير من العمل على جزيرتها ، لن تضيع وقتها فى الكراهية • ولكن فى موقف أكثر تعقيدا ، قد تكون الأنشطة الضرورية حقا أقل فاعلية فى خلق اغراء مباشر للأفراد • وفى الحالة الصعبة الحاضرة (★) للاقتصاد القومى البريطانى ــ نحن نعلم كمجموع ماذا نحتاج : زيادة الانتاج ، وتقليص الاستهلاك ، وتنشيط التصدير • ولكن هذه أمور ضخمة وعامة ، لا تتصل بوضوح بمصالح رجال وتساء معينين • فاذا أردنا للأنشطة اللازمة ، على مثل هذه

(★) يلاحظ تاريخ المحاضرات (٤٨ ــ ١٩٤٩) عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية •

الأسس البعيدة ظاهريا ، أن تؤدى بعزيمة وابتهاج ، وجب علينا ابتكار طرق لخلق سبب مباشر بدرجة فائقة لتنفيذ ما يستلزمه الاقتصاد القومى • وهذا فى نظرى يحتاج الى نقل محكم للسلطة الى المحليات ، وفرص متاحة لتحرك حر (كثير أو محدود) مرغوب للأفراد أو الجماعات التى ليست كبيرة جدا •

والديمقراطية ، كما توجد فى الدول الكبيرة الحديثة ، لا تتيح مجالا مناسبا للسبق السياسى الا لأقلية ضئيلة • وقد اعتدنا الاشارة الى ما سماه الاغريق « ديمقراطية » على أنها كانت محددة لاستبعادها النساء والعبيد ـ ولكننا لا نتبين دائما ، أنها ، لبعض الاعتبارات المهمة ، كانت أكثر ديمقراطية من أى شكل متاح ، عندما يكون الاقليم الحكومى شاسعا • فقد كان (حينئذ) كل مواطن قادرا على التصويت فى كل الشئون ، ولم يكن مضطرا الى اسناد سلطته الى ممثل ما • وكان يستطيع انتخاب ضباط تنفيذيين بمن فيهم القادة (الجنرالات) وكان فى قدرته التوصل للحكم عليهم اذا أغضبوا اغلبية ما • وكان عدد المواطنين صغيرا بدرجة تسمح لكل شخص أن يشعر بأن له وزنا ، وأنه يملك فاعلية ملموسة فى أى مناقشة مع معارفه •

ولست أوحى بأن هذا النظام كان جيدا كليا ، فقد كانت له فى الواقع عيوب خطيرة جدا • ولكنه ، بالنسبة لاتاحته السبق الفردى كان متفوقاً بدرجة كبيرة على أى نظام سائد فى العالم الحديث • خذ على سبيل المثال ، العلاقة بين دافع ضرائب عادى وبين الأدميرال فدافعو الضرائب كمجموع يستخدمون الأدميرال فموكلوهم فى البرلمان يصوتون بالموافقة على أجره ، ويختارون الحكومة التى تعتمد السلطة التى تعين الأدميرال • ولكن لو قدر لدافع الضرائب الفردى أن يحاول اتخاذ موقف السلطة المعتاد من الموظف للموظف ، تجاه الأدميرال ـ فانه سيوضع فورا فى مكانه • فالأدميرال رجل عظيم ، اعتاد فرض سلطته ، ودافع الضرائب ليس كذلك • ويصدق نفس الشيء بدرجة اقل ، فى كل

الخدمات العامة • وحتى ان كنت تريد فقط تسجيل خطاب في مكتب بريد ، فان الموظف في وضع من السلطة الوقتية ، ويستطيع على الأقل أن يقرر متى يلاحظ أنك تطلب انتباهه • واذا كنت تريد اجراء عملية اكثر تعقيدا ، فانه يستطيع ، اذا تصادف وكان مزاجه معكرا ، آن يسبب لك مضايقة ملموسة ، فيمكنه أن يرسلك لرجل آخر ، وهذا يمكنه أن يعيدك للرجل الأول ، ومع ذلك فكلاهما معتبران في «خدمة» الجمهور • والناخب العادى ، البعيد كبيرا عن رؤية نفسه مصدرا لكل سلطات الجيش والبحرية والشرطة والخدمات المدنية ، يستشعر نفسه تابعهم المتواضع ، الذى يجب عليه كما اعتاد الصينيون القول « أن يرتعد ويطيع » . وطالما بقى التحكم الديمقراطى بعيدا ونادرا ، بينما الادارة العامة مركزية ، والسلطة مسندة من المركز الى الدائرة المحيطة ، فان الشعور بالعجز الفردى أمام السلطات القائمة ، يصعب تحاشيه • ومع ذلك فمن الواجب منعه اذا قدر للديمقراطية أن تكون حقيقة فى الشعور ليس فقط فى آليات الحكومة •

وأغلب المساوىء التى انشغلنا بها فى هذه المحاضرة ليست شيئا جديدا • فمنذ فجر الحضارة عاش أغلب الناس فى مجتمعات حضارية حياة مليئة بالبؤس ، وكان المجد والمغامرة والسبق متاحا لقلة من المتميزين ، بينما كانت للجماهير حياة حافلة بالعمل الشاق المقترن بقسوة فظيعة بين آن وآخر •

ولكن الأمم الغربية أولا ، وكل العالم بالتدريج ، اهتدوا الى مبدأ جديد • فنحن لم نعد نرضى بأن يستمتع قليلون ، بكل الخيرات ، بينما يعيش الكثيرون فى بؤس • وقد سببت مساوىء التصنيع هزة رعب ما كانت لتحدثها فى الأزمنة الرومانية • وقد ألغيت النخاسة لأنهم شعروا بأنه لا يصح اعتبار أى مخلوق بشرى مجرد آلة لتحقيق الرخاء للآخرين • ونحن لم نعد نحاول ـ على الأقل نظريا ، أن ندافع عن استغلال الأجناس الملونة لصالح الغزاة البيض • وقد أوحت بالاشتراكية الرغبة فى تقليص الهوة بين الأغنياء

والفقراء • وفى كل الاتجاهات ظهر تمرد ضد الظلم وعدم المساواة ، ورفض لانشاء بناء فوقى متألق على أساس من المعاناة والتردى •

وقد أصبح هذا الاعتقاد الجديد مسلما به الآن بوجه عام ، لدرجة أننا لا نتبين تماما طبيعته الثورية فى تاريخ البشرية الطويل • وفى هذا المنظور ، تبدو السنوات المائة والستون الأخيرة ثورة مستمرة ، أوحت بها هذه الفكرة • وهو ـ ككل الاعتقادات الجديدة ذات الفاعلية ـ ليس مريحا ، ويستلزم تعديلات صعبة • وهناك خطورة ـ كما كان بالنسبة لكل الفلسفات الأخرى ، هى أن يساء فهم الوسائل فتؤخذ على أنها غايات ، وما ينتج عن ذلك من اغفال الغايات • وهناك خطورة أنه فى بحثنا عن المساواة ، قد لا يعترف الناس بأن الأشياء الجيدة التى نجد صعوبة فى توزيعها بالمساواة ، (قد لا يعترفون) بأنها جيدة •

وقد أتاحت بعض المجتمعات الظالمة فى الماضى فرصا لأقليات، ان لم نكن حريصين ، فقد لا يعطيها المجتمع الجديد ، الذى نسعى لبنائه ، لأى أحد •

وعندما أتحدث عن مساوىء اليوم ، فانى أفعل ذلك ، لا لأوحى بأنها أعظم من مساوىء الماضى ، ولكن فقط لأتأكد من أن ما كان جيدا فى الماضى يجب نقله للمستقبل بقدر الامكان ، دون أن نسىء لمرحلة الانتقال •

ولكن اذا قدر لهذا أن يتحقق ، فهناك أمور يجب أن نتذكرها ، معرضة للنسيان فى الطبعات الزرقاء للمدن المثالية •

ومن بين أهم الأمور المهددة بأن نضحى بها ، بدون ضرورة ، للمساواة الديمقراطية احترام الذات • وأقصد باحترام الذات النصف الطيب من الكبرياء ، وهو ما يسمى « بالكرامة » والنصف السيىء هو الشعور بالتفوق • واحترام الذات من شأنه أن يساعد شخصا ما على تحاشى الشعور

بالاذلال عندما يكون في قبضة أعداء ، كما يمكنه من الشعور بكونه على حق عندما يكون العالم كله ضده • واذا تجرد رجل من هذه الصفة فسوف يجد أن رأى الأغلبية ، أو الرأى الحكومي ـ واجب الطاعة ولا مجال لمناقشته ، ومثل هذه الطريقة في الشعور، اذا أصبحت عامة ، تجعل كلا من التقدم الأخلاقي والفكرى مستحيلين •

وقد بقى الى الآن احترام الذات ، بالضرورة ، فضيلة للأقلية • وحيثما يوجد عدم مساواة في السلطة ، فلا يحتمل أن يوجد (احترام الذات) بين أولئك الخاضعين لحكم غيرهم • واحدى السمات ، الأكثر اثارة ، للدول المستبدة هي الكيفية التي قادوا بها ضحايا الظلم الى تملق أولئك الذين يسيئون معاملتهم • وقد حيا السيافون الرومان الأباطرة الذين كانوا على وشك جعل نصفهم يذبحون لأجل تسليتهم • وتظاهر ديستويفسكي وباكانين ـ أثناء سجنهم ـ بتقدير للقيصر نيقولا •

والذين تجرى الحكومة السوفيتية تصفيتهم ، يعترفون في أغلب الأحيان بذنبهم بلهجة ذليلة ، بينما أولئك الذين يفلتون من حملات التطهير ، يبالغون في ممالآت مقززة ، وفي أحيان غير قليلة ، يحاولون ادانة زملائهم •

ويحتمل أن يتحاشى النظام الديمقراطي هذه الأشكال الفظة من التدني الذاتي ، ويمكنه أن يتيح فرصة كاملة للحفاظ على الاحترام الشخصي ، ولكنه قد يفعل العكس تماما •

ولما كان احترام الذات في الماضي مقصورا غالبا على القلة ذات الامتيازات ، فمن المحتمل أن تنتقص قيمته من جانب أولئك الذين يعارضون حكومة أقلية مستقرة • وأولئك الذين يؤمنون بأن صوت الجمهور هو صوت الله قد يوحون بأن أى رأى غير عادى أو أى ذوق غريب يكاد يكون ضربا من الكفر ، ويجدر اعتباره تمردا مدانا ضد السلطة الشرعية للمجموع • ويمكن تحاشي هذا فقط اذا اعتبرت

الحرية مساوية فى قيمتها للديمقراطية ، واذا تبين أن مجتمعا فيه كل فرد عبد للمجموع هو أفضل قليلا فقط من مجتمع فيه كل فرد عبد لمستبد • وتوجد المساواة حيث يكون الكل عبيدا ، تماما مثل حيث يكون الكل أحرارا • وهذا يبين أن المساواة ذاتها ، ليست كافية لصنع مجتمع خير •

وربما يكون أهم مشكل فى المجتمع الصناعى ، وهو طبعا واحد من أصعب المشاكل، هو جعل العمل محببا ، بمعنى أن يكون أكثر من مجرد وسيلة للدخل كما كان قبلا • وينشأ هذا المشكل خاصة بالنسبة للعمل غير الماهر • ويحتمل أن يكون العمل الصعب جذابا لأولئك الذين يستطيعون أداءه • فألغاز الكلمات المتقاطعة ، والشطرنج يشبهان كثيرا بعض أنواع العمل الماهر ، ومع ذلك يبذل كثيرون فيها مجهودا كبيرا ، لمجرد المتعة •

ولكن مع ازدياد الآلات هناك ازدياد مستمر فى نسبة من يكسبون قوتهم فى عمل ممل كليا وسهل جدا •

ويبرز الأستاذ أبركرومبى فى كتابه « **خطة لندن العظمى سنة ١٩٤٤** »ـ بالصدفة وبدون تأكيد ـ أن معظم الصناعات الحديثة لا تحتاج لصلاحيات متخصصة ، وعليه فلا حاجة لانشائها فى أحياء توجد بها مهارات تقليدية • ويقول :

« مبدأ عدم الاعتماد على أى مجموعة عمل واحدة تؤكده أكثر طبيعة العمل الحديث ، الذى يتطلب مهارة أقل نسبيا ، ولكن قدرا كبيرا من الثبات والصلاحية • وهذه صفات يمكن أن توجد تقريبا فى أى مكان بين جمهور الطبقة العاملة اليوم » •

« والثبات والصلاحية » هما بالطبع صفتان مفيدتان للغاية ، ولكن اذا كانتا كل ما يتطلبه عمل الشخص منه ، فليس من المحتمل أن يجد عمله محببا ومثيرا للاهتمام • ويكاد يكون من المؤكد أن ما توفره له حياته من رضى يتحتم تحقيقه خارج ساعات العمل • وأنا لا أعتقد أنه يمكن

تحاشى هذا كليا ، حتى عندما يكون العمل فى حد ذاته مملا وغير مشوق • وأول أمر ضرورى هو أن نعيد للعامل بعض المشاعر المتصلة بالملكية فى الماضى • فالملكية الفعلية لفرد عامل لا تتاح عندما تتدخل الآلات فى الأمر ، ولكن يمكن اتاحة طرق للحفاظ على الكبرياء المرتبطة بالشعور بأن هذا هو عملى أنا ـ أو على أية حال ـ عملنا ، حيث تشير (نا) الى مجموعة صغيرة بدرجة تسمح لأن يعرف كل منا الآخر ، وأن يكون هناك شعور فعال بالتكامل • وهذا لا يتحقق بالتأميم ، الذى يترك المديرين والموظفين على بعد من العمل مماثل تقريبا للبعد الذى كانوا عليه تحت النظام الرأسمالى• والذى نفتقر اليه هو ديمقراطية محلية على نطاق ضيق ، فى كل الشئون الداخلية ، فالمديرون والرؤساء يجب أن ينتخبهم أولئك الذين ستكون لهم سلطة عليهم •

والطبيعة المجردة والنائية لمن يملكون السلطة على العمليات الصناعية تقضى على أى اهتمام تملكى لدى الموظف العادى •

ويقدم مستر بيرنهام فى « ثورة الادارة » صورة أبعد ما تكون من البهيجة ، عن الامكانات فى المستقبل القريب • واذا أردنا أن نجنب العالم الكآبة التى يتنبأ بها ، فأهم شىء هو أن نجعل الادارة ديمقراطية • ويعالج هذا الموضوع بدرجة رائعة فى كتاب السيد جيمس جيللسبى « **التعبير الحر فى الصناعة** » وليس أفضل من أن أقتبس منه ـ فهو يقول :

ينشأ شعور بالكبت عندما يواجه فرد أو مجموعة مشكلا خطيرا ، ولا يستطيع التغلب عليه • فالحال فى البيروقراطية المدنية مثلها فى البيروقراطية الصناعية ، اذ توجد نفس التعطيلات ، والاشارة الى × أو Y ، وتقرير القواعد ، ونفس الشعور بالعجز والكبت • « لو تمكنت فقط من الوصول للرئيس لاستطاع أن يعرف وأن يفهم •• » وهذه الرغبة فى الوصول الى الرئاسة حقيقية جدا ومهمة جدا • والاجتماع الشهرى لممثلى مجموعات الموظفين ليس عديم القيمة ، ولكنه

ليس بديلا فعالا لصلة المواجهة بين المالك والموظف • ولا يجدى في هـذا الموقف ذهاب صبى المحـل أو الفنى بمشـكلته الى الرئيس ــ والرئيس بدوره ، المجرد من السلطة بسبب نقل الاشراف ، لا يستطيع عمل شيء الا أن يحيلها الى المشرف ، ويحيلها هذا بدوره الى مدير المصنع ، الذى يضعها فى جدول أعمال الاجتماع القادم • وربما تحـال المسـألة الى قسـم المصالح ، وهو قسم كبير فى شركة كبيرة ، وهو بديل لمـدير المصالح أو مدير المستخدمين ، وهـو ذاته بديل لأحد أدوار مدير الادارة أو المالك المدير ، ليعالجها أو يحيلها لآخر •

« وفى الشركة الكبيرة أكثر من شعور بالـكبت ــ اذ تبدو عملياتها غير ذات معنى بدرجة عجيبة فى نظر العضو • فهو يعرف القليل عن مغزى عمله فى الشركة ككل ــ وهو لا يعرف من هـو الرئيس الفعلى ، وفى أحيـان عـديدة لا يعرف من هو المدير العام ، وفى حالات كثيرة لم يحدث أن تكلم بالمرة مع المدير الرئيسى للمصانع • ومدير المبيعـات ومدير الانفاق ومدير التخطيط والمدير الرئيسى للمصالح ، وكثيرون آخرون ، هم مجرد أشخاص بوظائف جيدة وساعات عمل قليلة ، وليس له دور معه ولا ينتمون لمجموعته » •

والديمقراطية سواء فى السياسـة أو فى الصـناعة ، ليست حقيقة سـيكولوجية طالمـا بقيت الحـكومة أو الادارة يشـار اليهـا بضـمير الغـائب ، كهيئـة بعيـدة تعيش بطريقتها المتعالية ، ومن الطبيعى أن ينظر اليها بكراهية ــ كراهية عاجزة الا اذا اتخذت شكل التمرد • وفى الصناعة ، كما يوضح مستر جيلسبى ، تم عمل القليل جدا فى هـذا الاتجـاه ، وبقيت الادارة ، باسـتثناءات نادرة ، ملكيـة monarchical أو أقلية Oligarhcic صريحة ، وهذا شر ، ان ترك بدون كبح يميل للتفـاقم مع كل زيادة فى حجـم المؤسسات •

ومنذ بدء التاريخ ، عاشت أغلبيـة البشر تحت عبء الفقر والمعاناة والقسـوة ، واستشعروا عجزهم تحت نير

سلطات عدائية أو لا شخصية باردة • ولم تعد هذه المساوىء ضرورية لبقاء الحضارة ـ ويمكن ازالتها بمساعدة العلم الحديث والوسائل المتقدمة ، اذا افترضنا أنها ستستعمل بروح انسانية ، وبادراك لمصادر الحياة والسعادة • وبدون ادراك كهذا ، قد نخلق، بدون قصد ، سجنا جديدا، قد يكون عادلا ، فلن يكون خارجه أحد ، ولكنه موحش وخال من المتعة ، وميت روحيا •

وكيف يمكن تحاشى مثل هذه الكارثة ؟ هذا هو ما سأعالجه في المحاضرتين الأخيرتين •

ملحوظة : بعد المحاضرة •

ان مثلا مثيرا ومؤلما لتردى النوعية بسبب الوسائل الآلية الحديثة تقدمه صناعة التويد Tweed الاسكتلندية • فأقمشة التويد (★) Tweed المنسوجة يدويا ، والمعترف بجودتها الفائقة عالميا ـ كانت تنتج منذ زمن بعيد فى أقاليم (هايلاندز) و (هبريدز) و (الأوركنى) و (جزر شتلاند) • ولكن منافسة أصواف التويد المنسوجة آليا قد أصابت النساجين اليدويين بضربة قاصمة ، وضريبة المبيعات ـ طبقا للمناقشات في مجلس البرلمان ، تضيف الضربة القاضية •

والنتيجة الحتمية هي أن أولئك الذين يستطيعون بعد ذلك أن يكسبوا عيشهم بممارسة حرفتهم ، يضطرون لترك الجزر و (الهايلاندز) ليعيشوا فى المدن أو يهاجروا •

وفى مقابل كسب اقتصادى ، على المدى القصير ، من ضريبة المبيعات التى تحقق من مليون الى مليون ونصف جنيه سنويا ، يجب وضع الخسائر على المدى الطويل وهى خسائر يصعب احصاؤها •

فأولا هناك بالاضافة الى الخسائر التى تحملناها قبلا

(★) صوف ثقيل كان ينسج يدويا •

فى الذروة العمياء والجشعة للانقلاب الصناعى ، خسارة لمهارة أخرى محلية وتقليدية ، كانت رغم صعوبتها تحقق لأولئك الذين يمارسونها متعة العمل اليدوى ، ووسيلة لكسب العيش واحتراما ذاتيا واستمتاعا بالانجاز ، عن طريق الابداع والجهد ، فى ظروف صعبة وخطيرة •

وثانيا : هناك الانتقاص من الجودة الذاتية للمنتج ، جماليا وتقنيا فى وقت واحد •

وثالثا : يزيد هذا الاغتيال لصناعة محلية ، خطورة الاتجاه الى نمو المدن غير المحكم ، وهو الذى نحاول تحاشيه فى تخطيطنا القومى للمدن • فالنساجون المستقلون يتحولون الى وحدات فى تل نمل بشرى شاسع وكريه وغير صحى ــ ولا يعتمد أمنهم الاقتصادى بعد ذلك على مهارتهم الذاتية ولا على قوى الطبيعة ــ بل انه يضيع فى مؤسسات ضخمة ومحدودة العدد ، اذا فشلت فيها واحدة فشل الكل ولا يمكن ادراك أسباب الفشل •

ويتسبب فى هذه العملية عاملان : وهى نموذج مصغر للانقلاب الصناعى ، ولا يمكن التماس العذر لها فى هذا الوقت • فمن جهة نحن نعلم جيدا المساوىء المترتبة ، بخلاف الصناعيين الأوائل ، الذين لم يكن فى وسعهم رؤية عواقب أعمالهم • ومن جهة أخرى لم تعد هذه المساوىء الان ضرورية لزيادة الانتاج ، ولا لرفع مستويات حياة العامل المادية ، فقد جعلت الكهرباء والنقل بالسيارات الوحدات الصناعية الصغيرة ، ليست فقط متاحة اقتصاديا ، بل أيضا مرغوبا فيها لأنها تتجنب الانفاق الضخم على النقل والتنظيم • واذا بقيت احدى الصناعات الريفية مزدهرة فانه يجدر ميكنتها تدريجيا ــ مع تركها فى مكانها وكوحدات صغيرة •

وفى تلك الأجزاء من العالم حيث مازال التصنيع حديثا ــ توجد امكانية تحاشى الأهوال التى عانيناها • فالهند مثلا ،

وهى تقليديا بلاد مجتمعات ريفية ـ سيكون مأساويا اذا قدر لطريقة الحياة التقليدية ، مع كل مساوئها ، أن تستبدل فجأة وبعنف ، بمساوىء التصنيع الأكبر بالمدن ، ذلك لأنها ستطبق على أناس مستواهم المعيشى منخفض بدرجة يرثى لها • وعندما أدرك غاندى هذه المخاطر ، حاول تأخير الساعة باحياء النسيج بالنول اليدوى فى أنحاء البلاد ، وكان نصف محق • ولكن من الغباء أن نرفض المزايا التى يتيحها العلم لنا ، بل يجب أن نتشبث بها وأن نطبقها لتزيد الثروة المادية، وفى نفس الوقت ـ نحافظ على تلك الامتيازات البسيطة من الهواء النقى والمركز الاجتماعى فى مجتمع صغير ، والزهو بالمسئولية ، والعمل جيد الأداء ، وكلها يندر توفرها للعامل فى مدينة صناعية كبرى • ويمكن لأنهار الهمالايا أن تزود بكل الطاقة الهيدروكهربية اللازمة للميكنة التدريجية للصناعات الريفية بالهند ، ولتحسينات للصحة البدنية لا حدود لها ـ مع تحاشى الكارثة فى الصناعة أو الخسارة الأعمق والتدهور الذى ينتج عندما تنتهك التقاليد العريقة بضراوة •

ـ ٥ ـ

التحكم والسبق ومجالات كل منهما

ان مجتمعا صحيحا وتقدميا يتطلب كلا من التحكم المركزى والسبق الفردى والجماعي : فبدون التحكم توجد الفوضى ، وبدون السبق يسود الركود • وأنا أريد أن أصل في هذه المحاضرة الى بعض المبادىء العامة فيما يختص بالاجابة على السؤال : أى الشئون يلزم التحكم فيها ، وأيها يجب تركه للسبق الخاص ونصف الخاص ؟ وبعض الخواص التى نود تواجدها فى مجتمع ما هى فى جوهرها ثابتة ـ بينما خواص أخرى تكون بطبيعتها الذاتية متغيرة • وعندما نتحدث بدون تحديد ، فاننا قد نتوقع من الخواص الثابتة أن تكون مناسبة للتحكم الحكومى ، بينما الخواص المتغيرة يجب تعزيزها بسبق الافراد والجماعات • ولكن اذا قدر لهذا السبق أن يتاح ، وأن يكون مثمرا بدلا من مدمر ، فسيحتاج للتعزيز بتشريعات ملائمة ، وستقع مسئولية رعاية هذه التشريعات على عاتق الحكومة • وواضح أنه فى الدولة الفوضوية لا يمكن أن تقوم جامعات ، أو بحوث علمية ، أو نشر للكتب، ولا حتى الأمور البسيطة مثل عطلات الشاطىء •

وفى عالمنا المعقد ، لا يمكن أن ينشأ سبق مثمر بدون حكومة ، ولكن لسوء الحظ لا يمكن أن تقوم حكومة بدون سبق •

والأهداف الأولى للحكومة ـ كما اقترح ـ يجب أن تكون ثلاثة : الأمن والعدالة والصيانة • وهنك أمور فى منتهى الأهمية بالنسبة للسعادة البشرية ، وهى أمور تستطيع الحكومة وحدها تهيئتها • وفى الوقت نفسه ليس أى واحد منا مطلقا، وكل منا يمكن، فى بعض الظروف، أن يضحى بها

بقدر ما ، لأجل تحقيق درجة أكبر من الخير لآخر • وسأذكر شيئا ما عن كل منها بالترتيب •

فالأمن بمعنى حماية الحياة والملكيـة ـ كان وما يزال دائما معروفا كواحد من الأغراض الأولى للدولة • ومع ذلك فكثير من الدول ـ بينما تحافظ على سلامة المواطنين الملتزمين بالقانون ، ضد باقي المواطنين ، فانها لا تعتبر من الضروري حمايتهم من الدولة • فحيثما يوجد اعتقال من جانب النظام الادارى ، وعقـوبة دون أن يأخـذ القانـون مجراه ، فان الأشخاص الخاصين (غير العاملين) لا يتمتعون بالامن ، مهما كان نظام انشاء الدولة محكما • وحتى التمسك بأن يأخـذ القـانون مجـراه غير كاف ، الا اذا كان القضـاء مسـتقلا عن السلطة التنفيذية • وهذا النظام فى التصدير كان فى المقدمة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تحت شـعار « حرية الشعب » أو « حقوق الانسان » • ولـكن « الحرية » و « الحقوق » التى كانت مطلوبة كان يمكن تامينها فقط من جانب الدولة ، وفقط فى حالة ما اذا كانت الدولة من النوع المسمى «تقدمى » • ولم تؤمن هـذه « الحـرية » ولا هـذه « الحقوق » الا فى بلاد الغرب •

وبالنسبة لسكان البلاد الغربية فى الـوقت الحـاضر ، يكون الامن ضد هجمات الدول المعادية نوعا من الأمن الاكثر أهمية وهـو أكثر أهميـة لأنه لم يؤمن بعـد ، ولانه يزداد أهميه سنة بعد آخرى ، كلما تطورت طرق الحرب • ويكون هذا النوع من الأمن متاحا عندما تتواجد حكومة عالمية واحدة تحتكر كل أسلحة الحـرب الرئيسية • ولن آسـهب فى هـذا الموضوع ، مادام بعيدا عن موضـوعى بعض الشيء(★) • وسأقرر فقط ، بكل التأكيد الممكن ، أنه ما لم ، والى أن ، تحقق البشرية أمن حكومة واحدة للعالم، فان كل شيء ذا قيمة عدا ذلك ، بصرف النظر عن نوعيته ، يكون غـير مستقر ، ويمكن فى آى لحظة آن يدمر بفعل الحرب •

(★) يلاحظ أن هذا الموضوع لم يعد بعيدا فى وقتنا الحاضر (١٩٩٢) • (المترجمة)

والأمن الاقتصادى ، كان وما يزال واحدا من أهم أهداف التشريع البريطانى ، فالتأمين ضد البطالة ، والمرض ، والعوز فى سن متقدمة ، قد أزال من حياة العاملين لكسب قوتهم ، قدرا كبيرا من القلق المضنى بالنسبة لمستقبلهم. وقد تم التوسع فى التأمين الصحى باجراءات زادت متوسط العمر بدرجة كبيرة ، وقللت من عدد حالات المرض . وبدون الحرب غدت الحياة فى بلاد الغرب ، بدرجة كلية ، أقل خطرا كثيرا جدا عما كانت عليه فى القرن الثامن عشر . ويرجع هذا التغيير أساسا الى أنواع مختلفة من الرقابة الحكومية .

والأمن ، بالرغم من أنه أمر طيب بدون شك ، قد يطلب بدرجة مبالغ فيها حتى يصبح بدعة . والحياة الآمنة ليست بالضرورة حياة سعيدة . وقد تغدو كئيبة بسبب الملل والرتابة . وكثير من الناس ، وخاصة أثناء شبابهم ، يرحبون بقدر من المغامرة الخطرة ، وقد يجدون تنفيسا حتى فى حرب ما ، كهروب من السلامة المملة . والأمن فى حد ذاته هدف سلبى يوحى به الخوف . والحياة لتكون مرضية يجب أن يكون لها هدف ايجابى يوحى به الأمل . وهذا النوع من الأمل المغامر يرتبط بالمخاطرة (وبناء عليه) بالخوف . ولكن الخوف الذى نختاره عمدا ليس مثل الخوف الذى تفرضه ظروف خارجية على شخص ما . ولذلك لا نستطيع أن نقنع بالأمن فقط ، ولا أن نتصور أنه يمكن أن يهيىء العصر الأمثل

وأما بالنسبة للعدالة : فهذه وخاصة العدالة الاقتصادية قد أصبحت هدفا حكوميا فى الآونة الأخيرة . وقد أصبحت كلمة العدالة تترجم على أنها المساواة ، الا حيثما يعد التفوق الاستثنائى جديرا بجزاء استثنائى ولكن معقول . والعدالة السياسية ـ أى الديمقراطية ، كانت ومازالت مستهدفة منذ الثورتين الأمريكية والفرنسية . ولكن العدالة الاقتصادية هدف أحدث ، وتحتاج لقدر أعظم بكثير من الرقابة الحكومية . ويعدها الاشتراكيون بحق ـ فى

اعتقـادي ـ مرتبطة بملكيـة الدولة للصناعات الرئيسية ، وبقدر وفير من تنظيم التجارة الخارجية •

وقد يحاجي مناهضو الاشتراكية بأن العدالة الاقتصادية يمكن أن تكلف ثمنا باهظا • ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر أنه اذا قدر لها أن تتحقق ، فان قدرا كبيرا جدا من تحكم الدولة فى الصناعة والاقتصاد يصير جوهريا •

وهنـاك ، على أية حال ، حدود للعدالة الاقتصـادية ، يعترف بها على الأقل ضمنا ، حتى من أكثر مؤيديها الغربيين تحمسـا •

فمثلا من الأهمية القصوى البحث عن طرق التوصل الى المساواة الاقتصادية بتحسين وضع أجزاء العالم الأقل حظا ، ليس فقط لأن هناك كما ضخما من التعاسة سـوف يزول ، ولكن أيضا لأن العالم لا يستطيع أن يكون مستقرا أو آمنـا من الحروب الـكبرى ، بينما تستمر ضروب عدم المسـاواة الصارخة • ولكن محاولة لتحقيق المساواة بين الأمم الغربية وجنوب شرق آسيا بأى وسائل غير تدريجية ، من شأنها أن تجر الأمم الأكثر رخاء الى مستوى الدول الأقل رخاء ، بدون أى ميزة تذكر للدول الأخيرة •

والعدالة ، مثل الأمن ، ولكنهـا ، حتى بدرجة أكبر ، مبدأ يخضع لتحديدات • وهناك عدالة حيثما يكـون الـكل فقراء بالتساوى ، وحيثما يكون الكل أغنيـاء بالتساوى ، ولكنه يمكن أن يبدو من غير المجدى أن تجعل الأغنيـاء أفقر ان لم يكن من شأن هذا أن يجعل الأغنياء أكثر ثراء •

والقضية ضد العدالة تزداد قوة اذا كانت فى سعيها نحو تحقيق المساواة سوف تجعـل حتى الفقراء أكثر فقـرا من ذى قبل • وهذا يمكن أن يحدث فعلا اذا ارتبط بتدهور عام فى التعليم ، وتقليص فى البحث المثمر • واذا لم يكن قد حدث غبن اقتصادى فى مصر وبابيلون ، لغدا اختراع فن الكتابة مستحيلا •

وليست هناك على أية حال ، ضرورة ــ مع طرق الانتاج الجديدة ، للإبقاء على الغبن الاقتصادى فى الآمم المتطورة صناعيا فى سبيل تعزيز التقدم فى فنون الحضارة • بل هناك فقط خطر يجدر بنا أخذه فى الاعتبار ، ولكنه ليس ، كما كان فى الماضى ، استحالة تقنية •

وأصل الآن الى عنوانى الثالث : وهو الصيانة •

والصيانة مثل الأمن والعدالة ، تتطلب تحركا من جهة الدولة • وأقصد بالصيانة ، ليس فقط الحفاظ على الآثار العتيقة ومراكز الجماليات ، وصيانة الطرق والخدمات العامة ، وهلم جرا •• فهذه الأعمال تجرى حاليا ، باستثناء فترات الحرب • والأمر الرئيسى الذى آفكر فيه هو الحفاظ على مصادر الثروة الطبيعية فى العالم • وهذه مسألة بالغة الأهمية ولا يعيرها المسئولون الا اهتماما طفيفا • وفي أثناء المائة والخمسين عاما الماضية (١٨٠٠ ــ ١٩٥٠) استهلك البشر المواد الخام للصناعة والتربة التى تعتمد عليها الزراعة ، وهذا التبذير فى رأس المال الطبيعى مستمر بدرجة متزايدة وسريعة • وبالنسبة للصناعة ، فان البترول هو أكثر الأمثلة وضوحا • وكمية البترول الممكن استخراجها فى العالم غير معروفة ، ولكنها بالطبع ليست لا نهائية • وقد وصلت الحاجة اليها بالفعل الآن الى الدرجة التى يوجد فيها خطر مساهمتها فى قيام حرب عالمية ثالثة • (★) وعندما يصبح الحصول على البترول بكميات كبيرة غير متيسر ، سوف يتعين علينا تغيير طريقة حياتنا بقدر كبير • واذا حاولنا الاستعاضة عنه بالطاقة الذرية، فسوف يترتب على ذلك فقط استهلاك الامدادات المتاحة من اليورانيوم والثوريوم •

والصناعة ، كما هى الآن ، تعتمد أساسيا على استهلاك رأس المال الطبيعى ، ولا يمكنها أن تصمد طويلا بطريقتها المبذرة الحالية •

والأهم حتى من ذلك ، بناء على بعض المصادر المسئولة ،

(★) يلاحظ صدق هذه الرؤية فقد تحققت فى حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩٠ــ٩١ •
(المترجمة)

هو الموقف بالنسبة للزراعة ، كما أظهر بوضوح عظيم كتاب **الطريق الى البقاء** مؤلفه السيد فوجت • فباستثناء أقاليم ذات حظوة (ومن بينها غرب أوروبا) فان طرق فلاحة التربة السائدة تستنزف خصوبتها بسرعة • ونمو فلاحه Dust Bowl في أمريكا هو أحسن مثال معروف لعمليه تدميرية تجرى في أغلب انحاء العالم • فمع ازدياد السكان في تلك الاثناء ، يصبح حدوث أزمة غذائية حتميا في خلال الخمسين سنة المقبلة ، الا اذا اتخذت اجراءات قاسية • والاجراءات اللازمة معلومة لدارسي الزراعة ، ولكن الحكومات فقط هي التي تستطيع اتخاذها ، وهذا فقط عندما تكون مستعدة لمواجهة زوال شعبيتها وقادرة على ذلك • وهذا مشكل لم نوله بعد الا أقل اهتمام • وتتحتم مواجهته على كل من يؤمل في عالم مستقر بدون حروب مهلكة حروب اذا قدر لها أن تخفف أزمة الغذاء ، فلابد وأن تكون أكثر تدميرا من تلك التي عانينا منها فعلا • ذلك أنه أثناء كل من الحربين العالميتين (الأولى والثانية) ازداد عدد سكان العالم • وهذا الموضوع الخاص بالاصلاح في الزراعة قد يكون أهم ما يتعين على الحكومة مواجهته في المستقبل ، باستثناء موضوع منع الحرب •

وقد تحدثت عن الأمن والعدالة والصيانة أو الحفاظ ، كأكثر وظائف الحكومة أهمية ـ لأن هذه هي شئون تستطيع الحكومات وحدها تحقيقها • وأنا لم أقصد الايحاء بألا تكون للحكومات وظائف أخرى • ولكن وظائفها في المجالات الأخرى يجب ، في المقام الأول ، أن تشجع السبق غير الحكومي ، وأن تخلق الفرص لممارسته بطرق خيرة •

وهناك أشكال فوضوية واجرامية للسبق ، لا يمكن لمجتمع متحضر أن يتحملها • وهناك أشكال أخرى للسبق مثل سبق المخترع المعترف به ، وهو الذى يعترف الجميع بفائدته • ولكن هناك طبقة كبيرة وسيطة من المجددين ، لا يمكن التنبؤ مقدما بما اذا كانت نتائج أنشطتهم سوف تكون جيدة أم سيئة • ويجب بالذات ، بالنسبة لهذه الطبقة الحث على أن

حرية التجربة مرغوب فيها ، لأن هذه الطبقة تشمل كل ما كان ومازال يشكل الأجود فى تاريخ الانجاز البشرى ·

وتوحيد النمط ، وهو النتيجة الطبيعية لتحكم الدولة ، مستحب فى بعض الأمور ، وغير مستحب فى أمور أخرى · ففى فلورنسا فى عهد ما قبل موسولينى ، كانت هناك قاعدة للمرور فى المدينة ، وأخرى مضادة فى البلاد المحيطة · وكان هذا النوع من الاختلاف مزعجا ، ولكن كانت هناك شئون كثيرة كبتت فيها الفاشية نوعا مرغوبا فيه من التنوع ·

وفى شئون الرأى تكون ظاهرة طيبة أن يقوم نقاش نشط بين مدارس الفكر المختلفة · وفى عالم الفكر هناك الكثير لمناصرة صراع من أجل البقاء ، يؤدى ، بحسن الطالع، الى ابقاء للأصلح · ولكن ، اذا قدر أن يقوم تنافس فكرى فيجب أن تكون هناك طرق لتحديد الوسائل التى تستخدم · ولا يجوز اتخاذ القرار بواسطة الحرب ، ولا بالاغتيال ولا بالسجن لأولئك الذين يعتنقون آراء معينة ، ولا بمنع أولئك الذين يؤمنون بوجهات نظر ، غير محببة ، من كسب قوتهم ·

وحيث تعم مشروعات القطاع الخاص ، أو حيثما توجد دويلات كثيرة ، مثل ايطاليا النهضة وآلمانيا القرن الثامن عشر ، تتحقق هذه الظروف الى حد ما عن طريق التنافس بين مختلف المناصرين المحتمل وجودهم · ولكن ، عندما تصبح الدول ــ كما كان الاتجاه فى كل أوروبا ــ كبيرة ، والثروات الخاصة صغيرة ، تفشل الوسائل التقليدية فى الحفاظ على التنوع الفكرى · والوسيلة الوحيدة التى تبقى متاحة هى أن تمسك الدولة بالمجلة ، وتنشىء نوعا ما من قواعد كوينزبرى ، تدار على أساسها السباق ·

والفنانون والكتاب فى يومنا هذا ، هم تقريبا الأشخاص الوحيدون الذين يمكنهم ، ان حالفهم الحظ ، أن يمارسوا سبقا قويا ومهما كأفراد ، وليس بعلاقتهم بمجموعة ما ·

وأثناء اقامتي بكاليفورنيا كان هناك رجلان بدآ يعملان ليطلعا العالم على ظروف العمالة المهاجرة في هذه الدولة • وكان أحدهما روائيا عالج الموضوع في رواية ، أما الثاني، الذي كان مدرسا في جامعة حكومية ، فقد عالجها في جزء متأن من البحث الأكاديمي • وحقق الروائي ثروة ، أما المدرس فقد فصل من وظيفته ، وعاني من خطر محقق من الافلاس •

ولكن سبق الكاتب ، بالرغم من أنه مازال قائما ، فهو مهدد بطرق متنوعة ــ فاذا كان انتاج الكتب في يد الدولة ، كما هي الحال في روسيا (★) فتستطيع الدولة أن تقرر ما سوف ينشر ، وهناك احتمال ألا تظهر كتب الا تلك التي تكون موضع رضى كبار السياسيين ، ما لم توكل الدولة صلاحيتها الى سلطة غير متحيزة بالمرة • وينطبق نفس الشيء بالطبع على الصحف • وفي هذا المجال ، قد تصبح النمطية كارثة ، ولكنها تكون نتيجة محتملة لاشتراكية الدولة غير المقيدة •

ورجال العلوم ، (كما أوضحت قبلا في محاضرتي الثالثة) كانوا في الماضي يستطيعون العمل في عزلة ، وهو مازال الكتاب قادرين عليه • فكافنديش(٢٦) وفاراديي(٢٧) ومندل(٢٨) لم يعتمدوا تقريبا على مؤسسات ، واعتمد داروين فقط بقدر ما ساعدته الحكومة ، على المشاركة في رحلة « البيجل » (٢٩) ولكن هذه العزلة شيء يتعلق بالماضي • فأغلب البحوث تتطلب أجهزة باهظة الثمن ، وبعض الأنواع يتطلب تمويل بعثات الى مناطق صعبة • وبدون تسهيلات تهيئها الحكومة أو الجامعة يستطع القليلون جدا تحقيق الكثير من العلم الحديث • والشروط التي تقرر من الذين يستحقون الحصول على مثل هذه التسهيلات ، لها لهذا السبب أهمية عظمى • فاذا كان المستوفون للشروط فقط أولئك التقليديين الموالين في الجدل الجاري ، فان التقدم العلمي

(★) يلاحظ أن تاريخ المحاضرة سابق لانهيار الاتحاد السوفيتي المقصود هنا •
(المترجمة)

سوف يتوقف عاجلا ، وسوف يترك المجال لسيادة هيئة تعليمية مثل تلك التي أخمدت جذوة العلوم خلال العصور الوسطى ·

وارتباط السبق الشخصي بمجموعة ما في السياسة ، واضح وجوهرى · وفى العادة يكون هناك اندماج بين مجموعتين : الحزب وجمهور الناخبين · فاذا كنت ترغب فى اجراء اصلاح ما ، فعليك أولا أن تقنع حزبك بأن يتبنى مشروع الاصلاح ، ثم تقنع جمهور الناخبين بأن ينضموا الى حزبك · وقد تستطيع بالطبع أن تتصرف مباشرة مع الحكومة ، ولكن هذا نادر فى موضوع يثير الكثير من اهتمام الجمهور · وعندما يكون هذا غير ممكن ، فان المبادرة المطلوبة ترتبط بالكثير جدا من الوقت والجهد ، ويحتمل كثيرا أن تنتهى بالفشل ، لدرجة أن أكثر الناس يفضلون مسايرة الوضع القائم باستثناء مرحلة التصويت ، مرة كل خمس سنوات ، للمرشح الذى يعد بالاصلاح ·

وفى عالم بالغ التنظيم يجب قصر السبق الشخصى المرتبط بمجموعة على عدد قليل ، الا اذا كانت المجموعة صغيرة · ولو كنت عضوا فى لجنة صغيرة ، فمن المعقول أن تأمل التأثير على قراراتها · وفى السياسة القومية ، حيث تكون أنت واحدا من عشرين مليون ناخبا ، يكون تأثيرك ضئيلا، الا اذا كنت بارزا أو تشغل مركزا استثنائيا · فلك، وهذا حقيقى ، نصيب واحد على عشرين مليونا فى حكومة الآخرين ، ولكن لك فقط نصيب واحد على عشرين مليونا فى حكومتك أنت · ولهذا فانك تشعر بكونك محكوما أكثر من كونك حاكما · وتصير الحكومة فى خواطرك (هم) ، أو فئة نائية ، وغالبا سيئة النية ، بدلا من مجموعة من الأشخاص ، اخترتهم أنت ، بالاتفاق مع آخرين ، يشاركونك آراءك لتنفيذ رغباتك ·

وشعورك الفردى بالنسبة للسياسة ، فى هذه الظروف، ليس ذلك الشعور المقصود جلبه عن طريق الديمقراطية ،

ولكنه أقرب كثيرا مما يمكن أن يكون تحت حكم ديكتاتورى •

والشعور بالمغامرة الجريئة ، وبالمقدرة على تحقيق نتائج نستشعر أهميتها يمكن استرداده فقط اذا تيسر اسناد السلطة الى مجموعات صغيرة ، حيث لا تكون مجرد كثرة العدد سببا فى ارتباك الفرد • ولا غنى هنا عن قدر ملموس من التحكم المركزى ، ولو على الأقل للأسباب التى بحثناها (فى بداية هذه المحاضرة) • ولكن ، بأقصى قدر متناسب مع هذا المطلب ، يتعين أن يكون هناك تفويض لسلطات الدوله لانواع مختلفة من الهيئات ، جغرافية وصناعية وثقافية ، تبعا لوظائفها • ويجب أن تكون سلطات هذه الهيئات كافية لجعلها مثيرة للاهتمام ، وأن تحفز الأشخاص النشطين على الشعور بالرضا فى تأثيرهم عليها • وسوف تحتاج ، اذ قدر لها أن تحقق الغرض المرجو منها ، قدرا ملموسا من الاستقلال المالى • وليس هناك ما هو أكثر تثبيطا وقضاء على السبق من خطة وضعت بعناية ، واعتمدتها سلطة مركزية لا تكاد تعلم شيئا عنها ، وليس لديها أى تعاطف مع أهدافها •

ومع ذلك فهذا هو ما يحدث باستمرار فى بريطانيا تحت نظام التحكم المركزى • ونحن نحتاج لشىء أكثر مرونة وأقل جمودا اذا أردنا أن نتحاشى شلل أفضل العقول • ويجب أن تكون احدى السمات الجوهرية فى اى نظام سليم أن يوضع أكبر قدر من السلطة فى أيدى الرجال الذين يهتمون بالعمل اللازم انجازه •

وموضوع تقرير حدود لسلطات الهيئات المتنوعة سيكون بالطبع مصدرا لصعوبات كثيرة • ويجب أن يكون المبدأ العام أن تترك للهيئات الصغرى كل الوظائف التى لا تمنع الهيئات الكبرى من تحقيق غرضها • واذا قصرنا رؤيتنا فى هذه اللحظة على الهيئات الجغرافية ، فيجب أن تكون للحكومة العالمية هيمنة على مجالس الابراشيات • وظيفة الحكومة العالمية هى منع الحرب ــ ويجب أن تمنح فقط السلطات

اللازمة لهـذا الغـرض • وهـذا يستلزم احتكارا للقـوات المسلحة ، وسلطة لاعتماد ومراجعة المعاهدات ، وحق اصدار الأحكام فى النزاعات بين الدول • ولكن الحـكومة العالميـة لا يجوز لها أن تتدخل فى الشئون الداخلية للدول الأعضاء ، الا بالقدر الذى يكون فيه تأمين احترام المعاهدات ضروريا • وبطريقة مماثلة يجب على الحكومة القومية ترك أكبر قدر ممكن للمجالس الاقليمية ، وهذه بدورها لمجالس الأحيـاء والابراشيات • ولنا أن نتوقع ضياع قدر مؤقت من الكفاءة فى بعض المجالات ، ولكن اذا جعلت وظائف الهيئات الفرعية مهمة بدرجة كافية فسيشعر الأشخاص القادرون بالرضا عن عضويتهم لها ، وستعوض عاجـلا الخسـارة المؤقتـة فى الكفاءة •

وفى الوقت الحاضر ينظر للحكومة المحلية بتعميم زائد على انها هواية الموسرين والمتقاعدين ، ماداموا هم وحـدهم الذين يملكون وقت الفراغ لها • ولأنهم غير قادرين عـلى المشاركة ، فان قليلا من الشبان القادرين ، رجالا ونساء ، هم الذين يهتمون كثيرا بشئون مجتمعهم المحلى • واذا سعينا لعلاج هذا ، فيجب أن تصبح وظائف الحكومة المحلية أعمـالا بأجر لنفس الأسباب التى أدت من قبل لدفع رواتب لأعضاء المجالس النيابية •

وسواء أكانت المنظمة جغرافية أم ثقافية أم عقائدية ، فسيكون لها دائما نوعان من العلاقات : علاقات مع أعضائها ذاتها ، وأخرى مع العالم الخـارجى • وعلاقات هيئـة أو منظمة مع أعضائها يجب ـ كقاعدة ـ أن تترك للقـرارات الحرة لهؤلاء الأعضاء ـ طالما لا تنطوى على مجافاة للقانون• ورغم أن علاقات هيئة ما بأعضائها يجب أن يقررها الأعضاء ، فهنـاك بعض أسس يؤمل أن يراعيهـا الأعضـاء ، اذا قدر للديمقراطية أن تكون حقيقة • ولنأخذ عـلى سبيل المثـال مؤسسة استثمارية كبرى ، فقد اختص هجوم الاشتراكيـة عـلى الراسـمالية ، ربما بدرجة محـدودة أكثر من اللازم ،

بمسائل الدخل بدلا من مسائل السلطة • وعندما تتحول صناعة ما الى الدولة عن طريق التأميم ، فقد يحدث أن يبقى قدر من عدم المساواة فى السلطة كما كان قائما أيام الرأسمالية الخاصة ، لكون التغيير الوحيد هو أن من بيدهم السلطة هم الآن موظفون لا ملاك • ولا يمكن بالطبع تحاشى وجود موظفين تنفيذيين فى أى مؤسسة عظمى ، يملكون سلطة أكبر من الرتبة والملف ولكن من المستحب كثيرا ألا يكون عدم مساواة فى السلطة كهذه أكثر من الضرورى، وأن يتحتم اتاحة أكبر قدر من السبق لكل أعضاء المؤسسة •

وكتاب السيد جون سبيدان ليويس **المشاركة للجميع — تجربة عمرها أربع وثلاثون سنه فى الديمقراطيه الصناعية** كتاب مهم جدا فى هذا المجال • والذى يجعل الكتاب مهما هو أنه مبنى على تجربة عملية طويلة ومتسعة لرجل يجمع بين الروح العامة والجرأة التجريبية • وقد بذل ، على الجانب المالى ، جهودا لاعطاء كل موظف شعورا بأنه يشارك بفعالية فى حكومة المشروع — ولو انى أشك فيما اذا كانت أساليبه تؤدى الى التقدم ، بالقدر اللازم ، نحو الديمقراطية فى الصناعة • وقد طور أيضا أسلوبا لاعطاء الوظائف المهمة لأقدر الرجال على الاستمرار فى العمل اللازم • ومن الطريف أن نلاحظ أن له جدلا ضد المساواة فى الحوافز ، ليس فقط على أساس أن أولئك الذين يؤدون عملا صعبا يستحقون أجرا أفضل ، ولكن على الأساس المضاد — أن الأجر الأفضل يؤدى الى عمل أفضل • ويقول : « ان من الخطأ البالغ أن نتصور أن المقدرة والرغبة فى ممارستها هما معا ما يسميه علماء الرياضة — كما اعتقد — ثوابت Constants ، وأن كل ما يتغير هو الدخل الذى قد يحصل عليه العامل فى مقابل ذلك • فليس الأمر قاصرا فقط على ارادتك أن تفعل أفضل ما يمكنك ، بل ان مقدرتك الفعلية تعتمد كثيرا جدا على ما تحصل عليه من أجر • والناس لا يرتفع أجرهم فقط لأنهم قادرون ، ولكنهم أيضا قادرون لأن أجورهم مرتفعة » •

ولهذا المبدأ مجال تطبيق أوسع مما يعطيه السيد ليويس ـ فهو ينطبق ليس فقط على الأجر ، ولكن أيضا على الشرف والمركز • وأنا أعتقد ، في الواقع ، أن القيمة الرئيسية لزيادة ما في المرتب ، ترتبط بزيادة في المركز • فالعامل العلمي الذى ينادى الجميع بأهميته ، سيحصل على نفس حافز الاعتراف به مثل ما يمكن أن يحصل عليه رجل في مجال آخر ، من زيادة الدخل • والأمر المهم ، في الواقع، هو توفر الأمل ونوع معين من الزهو • وهو أمر أصبحت فيه أوروبا عاجزة تماما ، كنتيجة للحربين العالميتين •

وحرية المغامرة ـ بالمعنى القديم لمبدأ « دعه يعمل » لا يمكننا المناداة بها اليوم ، ولكن من الأهمية البالغة أن تبقى حتى الآن حرية السبق ، وأن يجد الرجال القادرون مجالا لقدراتهم •

وهذا ، على أية حال ، جانب واحد فقط مما يستحب في مؤسسة كبرى • والجانب الآخر المهم ، هو ألا تتاح لأولئك الذين في يدهم الحكم سلطة مطلقة أكثر من اللازم على الآخرين • ولقد حارب المصلحون لقرون عديدة ضد سلطة الملوك ، وبعد ذلك بدءوا يعملون لمحاربة سلطة الرأسماليين • وسيكون انتصارهم في هذا الصراع الثاني غير مثمر اذا نتج عنه مجرد احلال سلطة الموظفين محل سلطة الرأسماليين • وهناك بالطبع صعوبات عملية ، لأن الموظفين يجب غالبا أن يتخذوا قرارات دون انتظار النتائج البطيئة لعملية ديمقراطية ولكن يجب دائما أن تتوفر امكانات ـ من جهة ـ لتقرير الخطوط العامة للسياسة ديمقراطيا، ومن جهة أخرى ـ لنقد تصرفات الموظفين دون خوف من العقاب لهذا العمل • ولما كان طبيعيا بالنسبة للرجال النشطين أن يعشقوا السلطة، فيمكن افتراض أن الموظفين ، في الغالبية العظمى من الحالات ، سيرغبون في الحصول على سلطة أكثر مما يملكون• ولهذا يوجد في كل مؤسسة عظمى نفس الحاجة الى اليقظة الديمقراطية كما يوجد في المجال السياسى •

وعلاقات مؤسسة ما بالعالم الخارجي موضوع مختلف ، ولا يجوز تقريرها على أساس السلطة فقط ، واقصد ، على قدرة المؤسسة المشار اليها على المساومة ، بل تجدر احالتها الى سلطة محايدة كلما تعذر حلها بالمفاوضات الودية • ولا يجوز أن يكون هناك استثناءَ من هذا المبدأ ، الى أن نصل الى العالم ككل ، الذى ليست له حتى الآن ــ علاقات سياسية خارجية واذا فرضنا امكانية قيام حرب « ولزية » • للعالمين فسوف نكون فى حاجة الى سلطة وسيطة بين الكواكب •

والاختلافات بين الدول ، طالما لا تؤدى الى عداء ، لا يجوز أن تكون مثار أسف على الاطلاق • وحياتنا لبعض الوقت واقامتنا لبعض الوقت فى بلد اجنبى تحيطنا بوجود مزايا نفتقر اليها فى بلادنا ويصدق هذا على أى مكان (يمكن أن يكون بلدنا نحن) • وينطبق نفس الشىء على الفروق بين مناطق مختلفة فى نطاق بلد واحد ، وعلى الأشكال المختلفة الناتجة عن مهن مختلفة • والنمطية فى الاخلاق وفى الثقافة تدعو للأسف • ولقد اعتمد التطور البيولوجى على اختلافات موروثة بين الأفراد أو القبائل ، ويعتمد التطور الثقافى على اختلافات مكتسبة • وعندما تختفى هذه ــ لا يبقى لدينا آية مادة للانتقاء • ويوجد فى العالم الحديث خطر حقيقى من التشابه الكبير البالغ بين منطقة وأخرى فى الاعتبارات الثقافية • ومن أفضل الطرق لتقليص هذا الضرر الزيادة فى الحكم الذاتى للمجموعات المختلفة •

ويمكن تقرير المبدأ العام ، الذى ــ ان كنت على حق ــ يجب أن يحكم مجالات السلطة والسبق ، كل على حدة ، بخطوط عريضة ، بناء على أنواع الدوافع المختلفة التى تؤسس الطبيعة البشرية • فمن احدى النواحى ، لدينا دوافع للاحتفاظ بما نملك (وفى أغلب الأحيان) أن نكتسب ما يملكه الآخرون • ومن ناحية أخرى لدينا حوافز خلاقة ، دوافع لندخل فى العالم شيئا ما لا ننتزعه من أى شخص آخر ــ ويمكن لهذه الدوافع أن تتخذ أشكالا متواضعة مثل حدائق الأكواخ ــ ويمكن أن تمثل قمة فى الانجاز البشرى

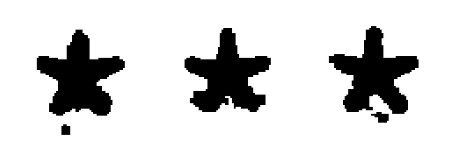
كما هو الحال عند شيكسبير ونيوتون • واذا تحدثنا بدون تحديد ، فان تنظيم دوافع التملك والتحكم فيها بالقانون ، ينتميان للوظائف الأساسية للحكومة ، بينما دوافع الابداع ــ رغم أن الحكومة قد تشجعها ــ فانها يجب أن تستمد تأثيرها الرئيسى من الحكم الذاتى للفرد أو المجموعة •

والسلع المادية مسألة تملك أكثر من السلع الفكرية • فالرجل الذى يأكل قطعة من الطعام يحرم كل الاخرين من أكلها ، ولكن الرجل الذى يكتب أو يستمتع بقصيدة لا يحرم رجلا آخر من كتابة واحدة مثلها تماما أو افضل منها ، او الاستمتاع بها • ولهذا السبب تكون العدالة مهمة بالنسبة للسلع المادية • ولكن بالنسبة للسلع الفكرية فيلزم اتاحة فرص لجعل الأمل فى الانجاز يبدو معقولا • وليست المكافآت المادية السخية هى التى تستحث الرجال القادرين على الأعمال الابداعية ، فقليل جدا من الشعراء أو رجال العلم كونوا ثروات أو سعوا لفعل ذلك • وقد اعدم سقراط بأمر السلطات ، ولكنه بقى رابط الجأش فى لحظاته الأخيرة ، لأنه كان قد أنجز عمله • ولو كان قد غمر بمظاهر التكريم ولكن منع من انجاز عمله ، لشعر بأنه قد عانى من عقوبة أشد قسوة • وفى دولة مونوليثية حيث تتحكم السلطة فى كل وسائل الاعلام ــ يحتمل أن يعانى شخص ذو اصالة مرموقة من مثل هذا المصير السيىء • وسواء تعرض أو لم يتعرض لعقوبات قانونية ، فانه يعجز عن نشر أفكاره • وعندما يحدث هذا فى مجتمع ما ، فانه لا يستطيع بعد ذلك أن يسهم بأى شيء ذى قيمة فى حياة البشر الجماعية •

والتحكم فى دوافع الجشع والنهب ضرورى ضرورة ملحة ، لذلك فان الدول ــ وحتى الدولة العالمية ــ لازمة لتحقيق البقاء •

ولكننا لا يمكننا أن نكتفى بمجرد بقائنا أحياء بدلا من أموات ــ فنحن نود أن نعيش فى سعادة ، وبنشاط

وابداع • ولهذا الغرض يمكن للدولة أن تهيىء بعضا من الظروف الضرورية ، ولكن فقط بشرط ألا تخمد ، في سعيها وراء الأمان ، الدوافع غير المنظمة غالبا ، التي تعطى الحياة طعمها وقيمتها • فمازال للحياة الفردية مكانتها الجديرة ، ويجب عدم اخضاعها كليا وبدرجة أكثر من اللازم لتحكم المنظمات الكبرى • والاحتياط من هذا الخطر ضرورى جدا في العالم الذى حققته التقنية الحديثة •



ـ ٩ ـ
الأخلاقيات الفردية والاجتماعية

فى محاضرتى الأخيرة هذه أود أن أفعل شيئين :

أولا : أن أكرر بايجاز الاستنتاجات التى وصلت اليها فى المحاضرات السابقة •

وثانيا : أن أربط بين النظريات الاجتماعية والسياسية وبين الاخلاقيات الفردية التى ينبغى على المرء الاسترشاد بها في حياته الشخصية ، وبعد المساوىء التى تعرفنا عليها والاخطار التى اعترفنا بها ، أن نعقد ـ رغم ذلك ـ كنتاج لعرضنا ، بعض الآمال الرفيعة لمستقبل البشرية غير البعيد كثيرا ـ وهو الأمر الذى أعتقد ـ من جانبى ـ ان له مبرراته على أساس التقدير المتزن للامكانات •

ولنبدأ بالاعادة بايجاز ـ فلقد ميزنا ـ بوجه عام ـ غرضين رئيسيين للأنشطة الاجتماعية • فالأمن والعدالة من ناحية ، يتطلبان اشرافا حكوميا مركزا ، يجب ان يمتد ـ اذا قدر له أن يكون فعالا ـ لتكوين حكومة عالمية • والتقدم ، على العكس ، يتطلب أقصى مجال للسبق الشخصى الذى يتمشى مع النظام الاجتماعى •

والوسيلة لتأمين أكبر قدر ممكن من هذين الهدفين هى اسناد السلطة • فيجب على الحكومة العالمية ترك الحكومات القومية حرة فى كل شىء لا يتعلق بمنع الحرب ، والحكومات بدورها يجب أن تترك أكبر مجال ممكن للسلطات المحلية • وفى الصناعة لا يصح أن نظن أن كل المشكلات سوف تحل فى حالة التأميم • فصناعة ضخمة مثل السكك الحديدية ـ يجب أن تتمتع بقدر كبير من الحكم الذاتى ، وعلاقة الموظفين

بالدولة فى صناعة مؤممة يجب ألا تكون نسخة مكررة لعلاقتهم السابقة مع المستخدمين الخاصين • وكل ما يتعلق بالرأى ، مثل الصحافة ، والكتب ، والدعاية السياسية ، ينبغى تركه للمنافسة الحقيقية ، وحمايته بعناية من التحكم الحكومى ، وكذلك من كل شكل من أشكال الاحتكار الأخرى • ولكن المنافسة يجب أن تكون ثقافية وفكرية ، لا اقتصادية ، ولا عسكرية ، ولا بواسطة القانون الجنائى •

وفى الشئون الثقافية يكون التنوع شرطا للتقدم • والهيئات التى تتمتع ببعض الاستقلال عن الدولة ، مثل الجامعات والجمعيات العلمية لها قيمة عظمى فى هذا السبيل • ومما يرثى له أن نرى ، كما فى روسيا اليوم(★)، رجال العلم مضطرين للمساهمة فى هراء تعتيمى استجابة لأوامر سياسيين جهلة علميا ، يستطيعون ومستعدين لفرض قراراتهم السخيفة باستعمال السلطة الاقتصادية والبوليسية• وهذه المشاهد التى يرثى لها يمكن منعها فقط بتحديدأنشطة السياسيين وقصرها على المجال الذى قد يكونون مؤهلين له • ولا يجوز لهم أن يتجرأوا على تقرير ما هو جيد من الموسيقى أو علم الأحياء أو الفلسفة • وأنا لا أرغب فى ان تتقرر هذه الأمور فى هذه البلاد بناء على الذوق الشخصى لأى رئيس وزراء ، سابقا أو حاضرا أو مستقبلا — حتى ولو كان ذوقه، لحسن الحظ ، معصوما من الخطأ •

وأصل الآن الى مسألة الأخلاقيات الشخصية ، كنقيض لمسألة القوانين الاجتماعية والسياسية • فما من شخص حر كليا ، وما من شخص عبد كليا • وبالدرجة التى يتمتع فيها رجل بالحرية يحتاج خلقا شخصيا يسترشد به فى سلوكه • وهناك البعض ممن يقولون ان المرء يحتاج فقط لأن يطيع القانون الأخلاقى المقبول فى مجتمعه • ولكنى لا أظن أن أى دارس لعلم الانسان يمكن أن يكتفى بهذا الرد • فقد اختفت ممارسات مثل أكل لحوم البشر والتضحية البشرية ،

(★) يلاحظ أن تاريخ المحاضرات هو ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ • (المترجمة)

وصيد الرءوس ، نتيجة للاعتراضات الأخلاقية على العرف الأخلاقى التقليدى • واذا كان شخص ما يرغب فى أن يعيش أفضل حياة متاحة ، فعليه أن يتعلم انتقاد العادات والمعتقدات القبلية المقبولة عموما لدى جيرانه •

ولكن بالنظر الى التخلى ، بوازع الضمير ، عما يعتبر صوابا بين المجتمع الذى ينتمى اليه المرء فينبغى التمييز بين سلطة العرف وسلطة القانون • فنحن نحتاج لتبرير فعل غير قانونى الى أسانيد أقوى كثيرا مما نحتاج اليه لتبرير فعل يتعارض فقط مع الخلق التقليدى • وذلك لأن احترام القانون شرط لا غنى عنه لقيام أى نظام اجتماعى محتمل •

وعندما يعد شخص ما قانونا معينا سيئا فان له الحق فى ذلك ، ويمكن أن يكون عليه واجب محاولة العمل على تغييره ، ولكن فقط فى حالات نادرة ، يكون له حق انتهاكه • وأنا لا أنكر أن هناك مواقف تصبح فيها مخالفة القانون واجبا ـ وذلك عندما يؤمن شخص ما ايمانا عميقا أن من الاثم أن يطيع • وهذا يغطى قضية المعارض ذى الضمير اليقظ • وحتى ان كنت مقتنعا تماما بأنه مخطىء ، فلا يمكنك القول بأنه لم يكن له أن يتصرف بما يمليه ضميره • وعندما يكون واضعو القانون حكماء ، فانهم يتحاشون بقدر الامكان، تشكيل القوانين بالطريقة التى ترغم الأشخاص ذوى الضمير الحى على الاختيار بين الاثم وبين ما هو مجرم قانونا •

وأعتقد أنه يجب علينا أيضا أن نعترف بأن هناك حالات يكون فيها للثورة ما يبررها • فهناك حالات تكون فيها الحكومة الشرعية سيئة بدرجة أن يبدو اسقاطها بالقوة مجديا ، رغم ما ينطوى عليه ذلك من خطر الفوضى المرتبط بها • وهذا الخطر حقيقى تماما • ومما يستحق الذكر أن أكثر الثورات نجاحا : ثورة انجلترا سنة ١٦٨٨ وثورة أمريكا فى سنة ١٧٧٦ ـ قد نفذها رجال كانوا يحترمون القانون من أعماقهم • وعندما ينتفى هذا يحتمل أن تؤدى

الثورة اما الى فوضى واما الى ديكتاتورية . ولهذا ، فان طاعة القانون ، ولو لم تكن مبدأ مطلقا فهى مبدأ يجب أن ندعمه بقوة ، وأن نعترف باستثناءاته فقط فى حالات نادرة ، وبعد مداولة رشيدة . وخلال التاريخ المسجل ، كان للمعتقدات الأخلاقية مصدران مختلفان تماما : أحدهما سياسى والثانى متعلق بالمعتقدات الدينية والأخلاقيات الشخصية . وفى انجيل العهد القديم ، يظهر الاثنان منفصلين تماما - واحد على أنه القانون ، والثانى على أنه الأنبياء . وفى (العصور الوسطى) ، كان هناك نفس نوع التمييز بين الاخلاق الرسمية التى تدعو اليها هيئات الكهنوت ، والقدسية الشخصية التى كان يعلمها ويمارسها كبار الصوفيين . وهذه الازدواجية للأخلاقيات الشخصية والمدنية ، التى مازالت قائمة ، هى ازدواجية يتحتم على أى نظرية أخلاقية مناسبة أخذها فى الاعتبار . فبدون الأخلاقيات المدنية تهلك المجتمعات ، وبدون الأخلاقيات الشخصية لا يكون لبقاء هذه المجتمعات أية قيمة . ولهذا فان الأخلاقيات المدنية والشخصية ضرورية بدرجة متساوية لأى عالم خير .

ولا يختص علم الأخلاق فقط بواجبى نحو جارى ، مهما كان تصور هذا الواجب العام سليما ، ولا تتحقق الحياة الخيرة بأداء الواجب العام فقط ، فهناك أيضا السعى لتحقيق الامتياز الشخصى . ذلك لأن الانسان رغم كونه اجتماعيا الى حد ما ، الا أنه ليس كذلك كليا ، فله خواطر ومشاعر ودوافع يمكن أن تكون رزينة أو طائشة ، راقية أو دنيئة ، مفعمة بالحب أو توحيها الكراهية . ويجب لكى تكون حياته محتملة ، أن يكون هناك مجال للأفضل بين هذه الخواطر والمشاعر والدوافع . ذلك أنه بالرغم من أن قليلا من الناس يمكن أن يكونوا سعداء فى الوحدة ، فان أناسا أقل منهم يمكن أن يسعدوا فى مجتمع لا يسمح بحرية التصرف الفردى .

والامتياز الفردى ، رغم أن معظمه يعتمد على السلوك السوى نحو الآخرين ، فان له أيضا مظهرا آخر . فاذا أنت

أهملت واجباتك لأجل تسلية تافهة ، فسوف تشعر بوخز الضمير ، ولكن اذا استهوتك لبعض الوقت موسيقى عظيمة ، أو غروب شمس رائع ، فسوف تعود بدون أى شعور بالخجل، ولا بأنك كنت تضيع وقتك هباء • ومن الخطر السماح للسياسة وللواجب الاجتماعي أن يسيطرا أكثر من اللازم على فكرتنا عما يشكل الامتياز الفردى • والذى أحاول التعبير عنه ـ رغم عدم اعتماده على أى اعتقاد (لاهوتى) . ينسجم تماما مع الأخلاقيات المسيحية • فقد أرسى سقراط والرسل مبدأ أن علينا أن نطيع الله لا الانسان ، وتعاليم الانجيل تفرض حب الله وحب جيراننا بنفس القدر من التأكيد • وكل عظماء القادة الدينيين ، وكذلك كل عظماء الفنانين والمكتشفين الفكريين قد أبدوا شعورا بالالتزام الخلقى لتحقيق دوافعهم الابداعية ، وشعروا بالسمو الأخلاقى بعد أن فعلوا ذلك • وهذا الانفعال هو أساس ما يسميه الانجيل الواجب نحو الله ، وهو (وأكرر) منفصل عن الايمان اللاهوتى • وواجبى نحو جارى ، على أية حال كما يتصوره جارى ، قد لا يكون كلّ واجبى • فلو كان لى اعتقاد ضميرى عميق بأنه يجب على أن أتصرف بطريقة تحرمها السلطة الحاكمة ، فعلى أن أتبع اعتقادى • وبالعكس يجب على المجتمع أن يتيح لى حرية اتباع معتقداتى الا اذا وجدت مبررات قوية لمنعى من ذلك •

ولكن ـ ليست فقط الأفعال التى يوحى بها الشعور بالواجب هى التى يجب أن تتحرر من الضغط الاجتماعى المفرط • فقد يؤدى فنان أو مكتشف علمى عملا بالغ الفائدة للمجتمع ، ولكنه لا يستطيع أداء عمله بدافع من الشعور بالواجب فقط • فيجب أن يكون لديه دافع تلقائى لأن يرسم أو أن يكتشف ، والا ، فان رسمه سيكون غير ذى قيمة ، واكتشافاته غير مهمة •

ولا يجوز اعتبار مجال التصرف الفردى أدنى أخلاقيا من مجال الواجب الاجتماعى • وعلى العكس فان أفضل

الأنشطة البشرية هى ـ على الأقل شعوريا ، شخصية أكثر منها اجتماعية • وكما قلت فى المحاضرة الثالثة ، فالأنبياء والصوفيون والشعراء والعلماء والمكتشفون هم جميعا رجال تسيطر على حياتهم رؤية ، وهم أساسا معتزلون • وعندما يكون دافعهم المسيطر قويا ، يشعرون بأنهم لا يستطيعون اطاعة السلطة اذا تصرفت عكس ما يعتقدون بعمق أنه خير • وبالرغم من أنهم ـ على هذا الأساس ـ كثيرا ما يضطهدون أثناء حياتهم ، فالمتوقع أن يصبحوا ، من بين كل الرجال ، أولئك الذين يقدم لهم الخلف أسمى درجات التكريم • وهؤلاء هم وحدهم الذين يزودون العالم بالأشياء التى نقدرها أكثر ـ ليس فقط فى الدين والفن والعلوم ، ولكن أيضا فى طريقة شعورنا نحو جارنا ، لأن التحسينات فى الوعى بالواجب الاجتماعى كما هو الحال فى كل شىء آخر جاءت أغلبها بفضل أشخاص معتزلين ، لم تخضع خواطرهم ومشاعرهم لسلطان الجماهير •

واذا أردنا ألا تصبح الحياة البشرية تافهة وغير مشوقة ، فمن المهم أن نتبين أن هناك أمورا لها قيمة وهى مستقلة تماما عن النفع المادى • فما يكون مفيدا لأنه وسيلة لتحقيق شىء آخر ، والشىء الآخر ، ان لم يكن بدوره مجرد وسيلة ، يجب تقييمه لذاته ، والا فان الفائدة تكون وهمية •

وتحقيق التوازن السليم بين الغايات والوسائل عملية صعبة ومهمة • فان كنت مهتما بتأكيد دور الوسيلة ، فقد تبين أن الفارق بين رجل متحضر وآخر همجى ، وبين شخص بالغ وطفل ، وبين رجل وحيوان ، يتوقف معظمه على الفارق بين الأهمية التى تعلقها فى السلوك على الغايات والوسائل • فالرجل المتحضر يؤمن على حياته ، بينما الهمجى لا يفعل ذلك الا مضطرا ، والرجال يعملون فى الحقول بجد ليوفروا الغذاء للشتاء ، والحيوانات لا تفعل ذلك • وبعد النظر الذى ينطوى على أداء أمور غير محببة الآن من أجل أمور محببة فى المستقبل هو واحد من أهم العلاقات الجوهرية للتقدم الفكرى •

ولكون بعد النظر صعبا ، ويتطلب التحكم فى الدافع ، فان علماء الأخلاق يؤكدون ضرورته ، ويؤكدون على فضائل التضحية حاضرا أكثر مما يفعلون على متعة الجزاء اللاحق ٠ فيجب عليك أن تعمل صالحا لأنه الصواب ، لا لأنه الطريق الى الجنة ٠ وعليك أن توفر مالا لأن كل العاقلين يفعلون ، وليس لأنك قد تستطيع فى النهاية تحقيق دخل يساعدك على الأستمتاع بالحياة ــ وهكذا ٠٠

ولكن الشخص الذى يريد آن يؤكد دور الغاية بدلا من الوسيلة يمكنه أن يقدم جدلا مضادا مع صدق مماثل ٠ فمن المحزن أن ترى رجل أعمال مسنا وثريا ، قد اصبح مريضا بسبب الهم والعمل فى شبابه ، حتى صار لا يستطيع ، لسوء الهضم ، أن يتناول فى طعامه أكثر من الخبز المقدد والماء القراح ، بينما ضيوفه غير المبالين يستمتعون بالوليمة ٠ فمتع الثراء ، التى كان قد توقعها طيلة سنوات العمل الشاق الطويلة ، تولى عنه ، وتبقى له متعة وحيدة ، وهى استعمال سطوته المالية لارغام أبنائه على الاستسلام بدورهم الى كدح مماثل وغير مجد ٠ والبخلاء الذين يكون استغراقهم فى الوسائل مرضيا ، يعدون عموما غير عقلاء ، ولكن اشدل هذا المرض الأقل خطورة كفيلة بأن تصادف اطراء مفرطا ٠ وبدون بعض الوعى بالأهداف تصبح الحياة كئيبة باهتة ٠ وفى النهاية ، فى كثير من الأحيان ــ تجد الحاجة للاثارة متنفسا أسوأ مما كان ممكنا ، فى مجال الحرب أو القسوة أو الخداع ، أو بعض الأنشطة الهدامة الأخرى ٠

والأشخاص الذين يفخرون بكونهم ما يسمى «بعمليين» ينشغلون فى أغلب الوقت بالوسيلة بطريقة مانعة ٠ ولكن حكمتهم نصفية فقط ٠ وعندما نأخذ فى الاعتبار النصف الآخر ، الذى يختص بالغاية ، تتخذ العملية الاقتصادية ، وكل الحياة الانسانية ، مظهرا جديدا بالكامل ــ فلا نسأل بعد ذلك « ماذا أنتج المنتجون » ، ولا « ماذا فعل الاستهلاك لتمكين المستهلكين بدورهم ؟ » وبدلا من ذلك نسأل « ماذا استجد فى حياة المستهلكين والمنتجين مما يجعلهم مبتهجين

لبقائهم على قيد الحياة » ؟ وبماذا شعروا وماذا عرفوا أو فعلوا مما يمكن أن يبرر وجودهم • هل مارسوا زهو المعرفة الجديدة ؟ هل أتيحت لهم معرفة الحب والصداقة ؟ هل استمتعوا بشروق الشمس والربيع ورائحة الزهور ؟ هل استشعروا متعة الحياة التى تعبر عنها المجتمعات البسيطة بالرقص والغناء ؟»• وفى ذات مرة ، فى لوس أنجلوس صحبونى لأرى المستعمرة المكسيكية التى قيل لى انها « للمشردين الكسالى » ولكنهم فى نظرى ، بدوا أكثر استمتاعا بما يجعل الحياة نعمة لا نقمة مما يحققه فريق مضيفى القلقين والعاملين بجد • وعندما حاولت شرح شعورى هذا ــ على آية حال ــ قوبلت بدهشة وعجز تام عن الادراك •

والناس لا يتذكرون دائما ان السياسة والاقتصاد والتنظيم عامة ، تنتمى لمجال الوسائل لا الغايات• ويتعرض فكرنا السياسى والاجتماعى لما يمكن تسميته (مغالطة الادارى) • وأقصد بها عادة النظر الى مجتمع ما على أنه كل نظامى ، من النوع الذى يعد جيدا اذا كان يبعث السرور فيمن يتأمله كنموذج للنظام ، وكتركيب مخطط بأجزاء معشقة بدقة بعضها فى بعض • ولكن أى مجتمع لا يقوم أو لا يصح أن يقوم ليرضى نظرة ظاهرية عامة ، بل ليجلب حياة طيبة للأفراد الذين يكونونه • ويجدر البحث عن القيمة النهائية فى الأفراد وليس فى المجموع • والمجتمع الجيد يكون وسيلة لتحقيق حياة طيبة لأولئك الذين يكونونه ، وليس شيئا له تميز مستقل لحسابه ذاته •

وعندما نقول ان الأمة كائن حى ، فاننا نستعمل تشبيها قد يكون خطيرا اذا لم نتعرف على سلبياته • فالرجال والحيوانات الراقية كائنات حية بمعنى دقيق • وأى خير أو شر يصيب شخصا انما يصيبه هو كشخص منفرد ، وليس هذا الجزء أو ذاك منه • فاذا كنت أعانى من ألم فى أسنانى ، أو فى أصبع قدمى فانى أنا الذى أتألم ، ولن يكون هناك ألم ان لم توجد أعصاب تصل الجزء المصاب بمخى •

ولكن عندما يفاجأ مزارع فى هيرفوردشير بعاصفة ـ فليست الحكومة فى لندن هى التى تشعر بالبرد • ولهذا السبب فان الشخص الفردى هو الذى يتحمل الخير أو الشر ، وليس ، من ناحية ، أى جزء منفصل من الشخص ، ولا من الناحية الأخرى ، أى مجموعة من الأشخاص • ومن الخطأ أن نعتقد بامكان وجود خير أو شر فى مجموعة من الناس بدرجة أكثر من الخير والشر فى أفراد متنوعين ـ وهو أكثر من ذلك ـ خطأ يؤدى مباشرة الى نظام حكم الحزب الواحد ، وهو لذلك خطأ خطير •

وهناك فئة من الفلاسفة ورجال السياسة ممن يظنون أن الدولة يمكن أن تحقق تميزا لذاتها ، وليس كمجرد كونها وسيلة لتحقيق صالح المواطنين • وأنا لا أستطيع رؤية أى سبب للموافقة على هذا الرأى • فالدولة لفظ مجرد ، لا تشعر بالبهجة أو بالألم ، وليست لها آمال أو مخاوف ، وما نفكر فيه كأغراضها هو فى الحقيقة أغراض أفراد يقودونها • وعندما نفكر بطريقة مجسدة ، لا مجردة ، نجد فى مكان (الدولة) أشخاصا معينين لهم سطوة أكثر مما لغيرهم من أغلب الناس • وهكذا فتمجيد (الدولة) يتضح فى الحقيقة أنه تمجيد لأقلية حاكمة • وما من شخص ديمقراطى يمكنه قبول مثل هذه النظرية الظالمة من أساسها •

وهناك نظرية أخلاقية أخرى ، تبدو لذهنى أيضا غير ملائمة • وهى تلك التى قد يمكن تسميتها النظرية (البيولوجية) ، ولو أنى لا أود تأكيد أن البيولوجيين يأخذون بها • وهذا الرأى مشتق من تأمل التطور • ومفروض أن الصراع للبقاء قد أدى تدريجيا الى كائنات حية متزايدة التعقيد تبلغ ذروتها (حتى الآن) فى الانسان • وبناء على هذا الرأى فان البقاء هو الغاية القصوى ، أو بالأحرى ، بقاء نوع المرء ذاته • واذا كانت هذه النظرية صحيحة ، فان كل ما يعمل على زيادة عدد سكان الأرض من البشر ، يفترض اعتباره « خيرا » ، وكل ما ينقص عدد السكان مفروض اعتباره « سيئا » •

وأنا لا أستطيع رؤية أى مبرر لمثل هذه النظرة الحسابية والآلية • فقد يكون سهلا أن نجد فدانا واحدا يحوى نملا يزيد عددا عن كل البشر فى العالم أجمع ، ولكننا لا نعترف على هذا الأساس بالتميز الفائق للنمل • ومن من البشر يمكن أن يفضل شعبا ضخما يعيش فى بؤس وفقر ، على شعب أصغر يعيش فى سعادة وراحة وفيرة ؟

وحقيقى بالطبع ان البقاء هو الشرط الضرورى لكل شىء آخر ، ولكنه شرط لكل ما له قيمة ، وقد لا تكون له قيمة فى حد ذاته • والبقاء فى العالم الذى استحدثه العلم الحديث والتقنية ، يتطلب كثيرا جدا من الحكومة • ولكن ما يجعل للبقاء قيمة يجب أن يأتى أساسا من مصادر توجد خارج الحكومة • والتوفيق بين هذين المطلبين المتعارضين كان وما يزال مشكلتنا فى هذه المناقشات •

والآن ونحن نجمع خيوط هذه المناقشات ، ونتذكر كل مخاطر زماننا ، أود أن أكرر استنتاجات معينة ، وبتحديد أكثر ، أن أعلن الآمال التى أعتقد أن لنا ، على أسس عقلانية، أن نعقدها ونتعلل بها •

فبين أولئك الذين يهتمون أكثر بالتماسك الاجتماعى وأولئك الذين يقدرون أولا السبق الفردى ، قامت ومازالت معركة طويلة الأمد منذ زمن الاغريق القدماء • وفى كل جدل طويل كهذا من المؤكد أن يكون هناك صدق على كلا الجانبين ، ولا يحتمل أن يوجد حل واضح الحدين ، ولكن فى أفضل الأحوال يوجد حل يتضمن تعديلا ، وحلول وسط مختلفة •

وخلال التاريخ على امتداده ، كما ألمحت فى محاضرتى الثانية ، كانت ومازالت هناك ذبذبات بين فترات الفوضى المفرطة وفترات من سيطرة الحكومة الصارمة • وفى وقتنا الحاضر ، باستثناء (ما يستجد من) موضوع الحكومة العالمية ، كان وما يزال هناك ميل زائد نحو السلطة ، واهتمام ضئيل جدا للحفاظ على سبق • وقد اتجه الأشخاص المتحكمون فى مؤسسات شاسعة لأن يصبحوا مجردين أكثر

من اللازم فى وجهات نظرهم ، لدرجة نسيان طبيعة البشر الحقيقيين ، ومحاولة ملاءمة الأشخاص للأنظمة بدلا من ملاءمة الأنظمة للأشخاص .

والافتقار للتلقائية ، وهى الظاهرة التى تميل مجتمعاتنا الراقية التنظيم للمعاناة منها ، يرتبط بالسيطرة البالغة لسلطات نائية على مناطق واسعة .

واحدى المزايا التى يمكن كسبها من اللامركزية هى أنها تحقق فرصا جديدة للآمال ، وللأنشطة الفردية التى تجسد هذه الآمال . واذا انشغلت كل خواطرنا السياسية بالمشكلات والأخطار الكبرى لكارثة العالم فمن السهل أن يتسرب اليأس الى نفوسنا . والمخاوف من الحرب ، ومن الثورة ومن ردود الفعل ، يمكن أن تستولى جميعها عليك حسب نوعية مزاجك ، وميولك الحزبية . وما لم تكن واحدا من عدد صغير من الأفراد الاقوياء ، فيحتمل أن تشعر بأنك لا تملك أن تفعل الكثير بالنسبة لهذه الأمور العظمى . ولكن فيما يتعلق بالمشكلات الأصغر ، مشكلات بلدتك أو نقابتك ، أو الفرع المحلى لحزبك السياسى - مثلا - فيمكنك أن تؤمل أن يكون لك تأثير ناجح . وهذا من شأنه أن يولد روحا متفائلة - والروح المتفائلة هى أهم ما نحتاج اليه اذا تعين علينا أن نجد وسيلة للتعامل بنجاح مع المشكلات الكبرى . ولقد تسببت الحرب وأنواع العجز والضيق المالى فى ارهاق يكاد يكون شاملا - وجعلت التعلق بالأمل يبدو ضحلا وغير خالص . والنجاح (حتى ان كان فى البداية ، على نطاق محدود) هو أفضل علاج لهذا المزاج من الارهاق والتشاؤم . والنجاح بالنسبة لغالبية الناس يعنى تجزئة مشكلاتنا ، وأن نكون أحرارا للتركيز على تلك التى ليست ضخمة بدرجة تبعث على اليأس .

ولقد أصبح العالم فريسة لعقائد سياسية مؤكدة بغير دليل ، أكثرها سطوة فى يومنا الحاضر (*) هما الرأسمالية والشيوعية .. ولا أعتقد أن أيا منهما - فى شكل جازم وغير

(*) يلاحظ تاريخ المحاضرة (سنة ١٩٤٨) . (المترجمة)

مخفف ، يمكنها تقديم علاج للمساوىء التى يمكن منعها • فالرأسمالية تتيح فرص السبق لقليلين ، والشيوعية يمكنها (ولو أنها فى الواقع لا تفعل) أن تـوفر للجميع نوعا من الأمان الرقى • ولكن اذا كان فى اسـتطاعة الناس تخليص أنفسهم من النظريات بالغـة البسـاطة ومن الصراع الذى تولده ، فسوف يصبح فى الامكان ، بتوظيف حكيم للتقنيـة العلمية ، تزويد الجميع بكل من الفـرص للجميع والأمن للجميع • ولسوء الحظ فان نظرياتنا السياسـية اقل ذكاء من علومنا ، ونحن لم نتعلم بعـد كيف نفيـد من معرفتنـا ومهارتنا بالطرق التى تحقق الكثير لجعل الحياة سعيدة ، بل ومجيدة أيضا •

وليست فقط تجربة الحرب والخوف منها هى الأمور التى تحـزن ، ولو أن هـذه قد تكـون الأقوى بين كل مسـاوىء زماننا • ونحن نعانى من القوى غير الشخصية العظمى التى تسيطر على حياتنا اليوم ، فتسبب بقاءنا عبيدا للظـروف ، ولو أننا لم نعد عبيدا بحكم القانون • ولا داعى لأن تكـون هذه هى القضية ، فقد ظهرت من خلال عبادة آلهة زائفة • ولقـد عبد الرجال النشـطون السـطوة بدلا من السـعادة والصداقة البسيطتين، وأذعن الرجال الأقل طاقة ، أو خدعوا بتشخيص خاطىء ، لمصادر الأحزان •

ومنذ بدء البشر العبودية ــ اعتقد الأقوياء أن سعادتهم يمكن تحقيقها بوسائل تستلزم فرض البؤس على الآخرين • وتدريجيا ، مع نمو الديمقراطية ، والتطبيق الحـديث جدا للأخلاقيات المسيحية على السياسة والاقتصاد ، بدأت تسـود مثل أفضل من مثل ملاك العبيـد • وقد تم الآن الاعتراف بمتطلبات العدالة كما لم يحدث أبدا فى أى أزمنة سابقة • ولكننا ، فى سعينا وراء العدالة بواسطة أنظمـة معقـدة ، غدونا عرضة لنسيان أن العدالة وحدها غير كافية ، فالمسرات اليومية ، وأوقات التحرر من الهموم ، والمغامرة ، والفرص المتاحة لأنشطة الابداع ، لهـا جميعها ، عـلى الأقل ، نفس

الأهمية التى للعدالة ، فى تحقيق حياة يشعر النـاس بأنهـا تستحق أن يعيشوها ٠

ويمـكن أن يكـون الملل مميتا أكثر من توالى البهجـة والكرب ٠ والرجال الذين يبتكرون اصلاحات ادارية وخططا لتحسين المجتمع أغلبهم رجال جادون ممن تخطوا سن الشباب ٠ ولقد نسوا فى كثير من الأحيـان آن من الأمـور الضرورية لتحقيق السيادة لأغلب النـاس نوعا من الكبرياء الذاتيـة بالاضـافة الى التلقائيـة ٠ واعتزاز منتصر عظيم ليس مما يمكن أن يتيحه عالم حسن التنظيم . ولكن اعتزاز الفنـان والمكتشف ، والرجل الذى أحال البيداء الى حديقة ، أو حقق سعادة بدلا من بؤس مؤكد ــ مثل هذا الاعتزاز جيد ، ويتعين على نظامنا الاجتماعى أن يجعله ممكنا ، ليس فقط للقليلين ، ولكن للكثيرين جدا ٠

والغرائز التى حفزت ، منذ أمد بعيد ، آنشطة الصيد والقتال عند أجدادنا الهمج ، تتطلب منفذا ما ، وان لم تجده ، فستتحول حتما الى الكراهية والحقد المحبط ٠ ولكن هنـاك منافذ لهذه الغرائز بالذات ، وهى منافذ غير ضارة ٠ فيمكن استبدال القتال بالمنافسة والرياضـة النشـطة ، واستبدال الصيد بمتعة المغامرة والاكتشاف والابداع ٠ ولا يجوز لنا أن نتجاهل هذه الغرائز ، ولسنا فى حاجة للأسف لوجودها ، فهى المصدر ليس فقط لما هو سيىء ، بل أيضـا لـكل ما هو متميز فى انجاز البشر ٠ وعندما يتحقق الأمان ، فان أهم عمل لأولئك الذين ينشدون صالح البشرية سوف يكون ايجاد منافذ عديدة ، بقدر الامكان ، لهذه الغرائز القوية العتيقة ــ منافذ تهيىء البهجـة والفخـر والاعتزاز والروعة للحيـاة البشرية ، وليس فقط مجرد قيود لكبحهـا ولا منـافذ تجلب الدمار ٠

وخلال كل عصور التطور البشرى تعرض الناس لضروب بؤس من نوعين : ذلك الذى تفرضه الطبيعة الخارجية ، وذلك الذى أنزله البشر بعضهم على بعض لسوء التوجيـه ٠ وفى

البداية كانت أسوأ ضروب الشر تلك التي ترجع للبيئة • فقد كان الانسان نوعا نادرا ، وكان بقاؤه غير مضمون • وبدون خفة الحركة عند القرد ، وبدون أى رداء أو فراء ، كان من الصعب عليه الهروب من الحيوانات المتوحشة ، وفى أغلب أنحاء العالم لم يكن يحتمل برودة الشتاء • وكانت له فقط ميزتان بيولوجيتـان : الوضـع الرأسى الذى حـرر يديه ، والذكاء الذى مكنه من نقل تجربته للآخـرين • وبالتدريج أتاحت له هاتان الميزتان التفوق • فتزايدت أعـداد النـوع البشرى أكثر من أى نوع آخر من الحيوانات الثديية ـ ولكن بقى فى وسع الطبيعة تأكيد سـطوتها بواسـطة الفيضـان والمجاعة والوباء ، وبفرض الكد المتواصـل عـلى الغـالبية العظمى من الجنس البشرى ، لتأمين لقمة العيش اليومية •

وفى عصرنا نحن ، يتنـاقص بسرعة ارتبـاطنـا الوثيق بالطبيعة الخارجية ، نتيجة لنمو الادراك العلمى • فالمجاعات والأوبئة مازالت واردة ، ولكننا نعرف سنة بعد سنة أفضل ما يجب عمله لمنعها • ومازال العمل بجد ضروريا ، ولـكن فقط لأننا غير حكماء • فبعد أن أتيح لنا السلام والتعـاون كان يمكننا أن نعيش بقدر معقول جدا من العمل الشاق • ومع التقنيات القائمة ، يمكننا كلما أردنا ممارسة الحكمة ، أن نتحرر من الكثير من أشكال تحكم الطبيعة الخارجية •

ولكن ضروب الشر التى ينزلها الناس بعضهم ببعض لم تتناقص بنفس الدرجة : فمازالت هناك حروب، واضطهادات وضروب من القسـوة المقيتـة ، ومازال الـرجال الجشـعون ينتزعون الثروة من أولئك الأقل مهارة أو الأقل قسوة منهم أنفسهم • ومازال حب السيطرة يؤدى الى أعمال استبدادية أو الى مجرد التعطيل والاعاقة ، عنـدما تسـتحيل أشـكالها الأكثر فظاظة • والخوف الدفين ـ الخوف اللاواعى تقريبا ، مازال الدافع المسيطر فى حياة الكثيرين جدا •

وكل هذا غير ضرورى ، فليس ثمة فى الطبيعة البشرية ما يجعـل هـذه المساوىء حتمية • وأود أن أكرر ، مع كل

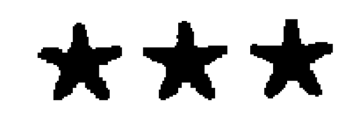
ما يمكن من تأكيد ، أننى أختلف كليا مع أولئك الذين يستنتجون من حوافزنا الصراعية أن الطبيعة البشرية تستلزم الحرب وأنواعا أخرى من الصراع الهدام • بل انى أعتقد بقوة عكس هذا تماما ، وأنادى بأن الحوافز الصراعية لها دور جوهرى تلعبه ، وأنها فى أشكالها المؤذية يمكن تقليصها بدرجة بالغة •

وسوف يتناقص حتما جشع التملك حيثما يختفى الخوف من العوز والاملاق • ويمكن اشباع السطوة بطرق عديدة لا يتبعها ايذاء للآخرين : وذلك بالسيطرة على الطبيعة عن طريق الاكتشاف والاختراع ، وبانتاج كتب محببة أو أعمال فنية وبالاقناع الناجح • فكل من النشاط والرغبة فى أن تكون مجديا خير اذا وجد المنفذ السليم ، ومؤذ ان لم يفعل ، مثل البخار الذى يستطيع اما دفع القطار أو تفجير الغلاية •

وقد أتاح لنا تحررنا من التبعية للطبيعة الخارجية درجة أعلى من الخير البشرى عما كان متاحا حتى وقتنا هذا • ولكن اذا أردنا تحقيق هذه الامكانية ، فلابد من اتاحة حرية السبق بكل الطرق غير المؤذية ، وتشجيع تلك الأشكال من السبق التى تثرى حياة الانسان • ولن نخلق عالما خيرا بمحاولة جعل الناس باردين وجبناء ، ولكن بتشجيعهم على الجرأة والمغامرة بدون الخوف اللهم الا من انزال ضروب الأذى على رفاقهم من البشر • وفى العالم الذى نجد أنفسنا فيه تكاد امكانات الخير أن تكون بغير حدود ، وامكانات الشر لا تقل عنها • ويرجع مأزقنا الحاضر ، أكثر من أى شىء آخر ، الى حقيقة أننا تعلمنا أن نفهم وأن نتحكم ، بدرجة مخيفة ، فى قوى الطبيعة خارجنا ، دون تلك التى تحتويها أنفسنا •

والتحكم فى الذات ، كان ومازال دائما شعارا لدعاة

الفضيلة ، ولكنه كان دائما ـ فى الماضى ـ تحكما بدون ادراك • وقد حاولت فى هذه المحاضرات الوصول الى ادراك لاحتياجات البشر أوسع من المسلم به لدى أغلب رجال السياسة والاقتصاد ، ذلك لأنه فقط عن طريق مثل هذا الادراك يمكننا أن نمضى قدما نحو تحقيق تلك الآمال التى رغم أن معظمها مازال مكبوتا بسبب طيشنا ، قد جعلتها مهاراتنا فى متناول أيدينا •



الحـواشى

١ ـ نينيفـه Nineveh

مدينة قديمة فى آشـــور مواجهة للموصـــل وقد سقطت سنة ٦١٢ ق٠م٠

٢ ـ بابيـلون Babylon

مدينة قديمة فى آسيا على نهر الفرات جنوب بغداد ٠ وكانت عاصمة الامبراطورية البابيلونية وازدهرت بين سنوات (١٨٠٠ ـ ٥٠٠ ق٠م٠) وكانت بها مبان فخمة وحدائقها المعلقة احدى عجائب الدنيا السبع ٠

٣ ـ بابيين Papuans

سكان بابيوا وهى اقليم فى جنوب شرق غينيا الجديدة بافريقيا٠

٤ ـ ستونهنج : Stonehenge

احد آثار ما قبل التاريخ بجنوب انجلترا ٠ وهــو بنــاء دائرى كان يستعمل قديما فى عبادة الشمس ٠

٥ ـ الغـــال Gaul

بلاد الغول أو الغــال وتشمل : أراضى فرنسا وبلجيــكا وهولندا والمانيا قــديما ٠

٦ ـ آتيــلا Attila

ملك الهون (٤٠٥ ـ ٤٥٣ م) : خلف هوو أخوه عمهما ســـنة ٤٣٤ ٠ وبعد أن قتل أخاه ، أخضع برابرة آخرين ، وقادهم عبــر نهر الدانوب سنة ٤٤٧ وأحدثت أعمال النهب التى ارتكبها تأثيرا مخيفا على الامبراطورية البيزنطية ٠ وقد اكتسحت قواته أراضى المانيا ودخلت فرنسا ٠

٧ ـ جنجــز خــان Jenghis Khan

امبراطور مجولى (١١٦٣ ـ ١٢٢٧) أعلن امبراطورا للبـــلاد سنة ١٢٠٦ وقاد جيوشه الى داخل الصين وتركستان والفرس والهنـــد ٠

٨ ـ آزتك Aztec

شعب هندى يعيش فى المكسيك عندما غزا الأسبان البلاد فى القرن الخامس عشر · وقد جاءوا من الشمال واستولوا على التراث الطولتى وانشأوا مملكة قوية هزمها كورتيس فى القرن السادس عشر · وكانوا متقدمين فى الزراعة والفن والبناء والهندسة وقد عبدوا كثيرا من الآلهة ·

٩ ـ انكا Inca

شعب له حضارة قد تعود الى ١٢٠٠٠ ق·م· وكانوا يملكون امبراطورية تغطى اقاليم بيرو الحديثة وجزءا من بوليفيا وشيلى ·· وقد أطاح بها بيزارو فى سنة ١٥٣٣ · وقد احرز الانكايين ثقافة راقية كما يظهر من نظامهم الاجتماعى وزراعتهم ومبانيهم ومنسوجاتهم ·

١٠ ـ ميزوبوتيميا Mesopotamia

اقليم فى آسيا يجرى فيه نهرا دجلة والفرات · ويرجع تاريخه الى آلاف السنين قبل الميلاد وهو الأراضى القديمة للعراق الحديث ·

١١ ـ جبال البرانس Pyrenees

سلسلة جبال البرانس جنوب غربى أوربا وتفصل بين فرنسا وأسبانيا · وتمتد من البحر الأبيض المتوسط الى خليج بسكاى·

١٢ ـ باليوليثيك Paleolithic

تعبير يشير الى الأدوات المنحوتة التى انتجها رجال العصر الحجرى القديم ·

١٣ ـ هايلاندز Highlands

الأراضى المرتفعة فى شمال سكوتلندا ولأهاليها موسيقى خاصة (موسيقى القرب) ·

١٤ ـ الرواقيين Stoics

مدرسة فلسفية قديمة كان لها اثر كبير على عالم روما ·

١٥ ـ Totalitarian

نظام حكم شمولى ـ يركز السلطة فى أيدى حاكم واحد او حزب واحد ـ مثل النازية فى عهد هتلر والفاشية فى عهد موسولينى ·

١٦ ـ سـقراط Socrates

فيلسوف يونانى (٤٤٩ ـ ٣٣٩ ق٠م) كرس آخر سنى حياته للفلسفة ـ وعلم اكسنوفيس وافلاطون وآخـرين ٠ ونادى بان معرفة الذات اهم من التامل فى الكون ٠ وان الصدق (الحكمة) والفضيلة متصلان وان الرذيلة مصدرها الجهـل ٠

١٧ ـ Gospels

الكتب الاربعة الأولى من العهد الجديد ٠

١٨ ـ شركيس Xerxes

ملك الفرس (٤٨٥ ـ ٤٦٥ ق٠م) قاد حملة ضـد الاغريق سـنة ٤٥٠ ق٠م٠ وهزمهم ثم هزموا هم (الفرس) فى البحر ـ وقد اغتيل فى النهاية ٠

١٩ ـ روبسبير Robespierre

قائد ثورى فرنسى اصبح قائدا لليعقوبيين ، وكان عضوا فى لجنة الأمن العام وله صلة بحكم الارهاب وقد انقلب اتباعه ضـده واعدام بالجيلوتين ٠

٢٠ ـ كابتن كيـد Captain Kidd

قرصان انجليزى سجن وشنق لهذا السبب وذلك سنة ١٧٠١ ٠

٢١ ـ جون سباستيان باخ Bach

موسيقى المانى شهير (١٦٨٥ ـ ١٧٥٠) ٠

٢٢ ـ اخيـل Achilles

بطـل اغريقى مشـهور ٠

٢٣ ـ «Tell his tale under the Hawthorn in the dale».

اشارة الى بيت شعر للشاعر ميلتون بالانجليزية

٢٤ ـ سـينا Siena

مدينة فى توسكانيا بايطاليا جنوب فلورنسا ـ بها جامعة منذ القرن الثالث عشر وكاتدرائية قوطية وشـعبها اكثر من ٣٢٠٠٠ نسـمة ٠

٢٥ ـ السـمورات Beavers

حيوانات من القوارض ثمينة الفـراء ٠

٢٦ ـ كافنديش Cavendish Henry

عالم كيمياء وطبيعة انجليزى (١٧٣١ ـ ١٨١٠) اكتشف الهيدروجين سنة ١٧٦٦ ، وحدد مكونات الماء والهواء · وحول الأوكسوجين والهيدروجين مجتمعين الى ماء قبل سنة ١٧٨٤ ·

٢٧ ـ فارادى Faraday. Michael

عالم كيمياء وطبيعة (١٧٩١ ـ ١٨٦٧) كان يعمل بتجليد الكتب ، ثم درس فى وقت فراغه العلوم وفى سنة ١٨٣٧ اصبح أستاذا للكيمياء فى المعهد الملكى · وقادت بحوثه فى الكهربائيات الى علم الكيمياء الكهربية ·

٢٨ ـ مندل Mendel, Abbé Gregor

عالم نمساوى (١٨٢٢ ـ ١٨٨٤) قام ببحوث أدت الى نظرية مندل فى الوراثة ·

٢٩ ـ بيجل Beagle

كلب صغير يستعمل أساسا فى صيد الأرانب · وهو من سلالة الثعلب ـ ذكى وله حاسة شم قوية والمقصود هنا رحلة البيجل للفضاء ·

٣٠ ـ كوينزبرى Queensberry

وصف يسند لقواعد الملاكمة ، وكان قد وضعها المركيز كوينزبرى وهو مشهور برعايته للرياضة ·

اقرأ في هــذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا ·
نقطة مقــابل نقطة	الدس هكسلي ·
الجغرافيا في مائة عام	ت · و · فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغــامضة	ليستر ديل راى
الرواية الانجليزية	والتر الن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولبج فولكف
الهوية القومية في السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقــود	ديفيد وليام ماكدونالد
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشــوان
عصر الرواية ـ مقال في النوع الادبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشرف س· بى كوكس
الانسان ذلك الانسان الفريد	جون لويس
الرواية الحــديثة	بول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمــود طــه	انور المعــداوى
القوة النفسية للاهرام	بيل شول وادنبيت
فن الترجمـــة	د· صــفاء خلوصى
تولســـتوى	رالف ئى ماتلو
ســـتندال	فيكتور برومبير
رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجــو
الجزء والكل (محـــاورات في مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	ســيدنى هــوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف· ع ادنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د· نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب في الكيمياء	د· فاضل احمد الطائى

فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجحيـــم	هنرى باربوسى
صنع القـــرار السياسى	السيد عليـــوة
التطور الحضـــارى للانســـان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للاطفال ؟	د٠ روجر ستروجان
تربيـــة الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا٠ سبنسر
النحــل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحـدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحـــافة	بيير البيـــر
اثر الكوميديا الالهيــة لدانتى فى الفـــن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبـــل الثـورة البلشـــفية وبعدها	د٠ رمسيس عـــوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين احمد حسين
نظريات الفيلم الكبرى	تاليف : ج٠ دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟	طائفة من العلماء الأمريكيين
حـــرب الفضاء	د٠ محمد أسعد عبد الرؤوف
ادارة الصراعات الدولية	د٠ السيد عليـــوة
الميكروكمبيـــوتر	د٠ مصطفى عنـــانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى وكينيث مينوج
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياســـه	زافيلسكى ف٠س
اجهزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضاوى

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي	بيتر · رداي
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س · م بورا
مراكز الصناعة في مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د · سمبسون و نورمان د · اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د· أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائي	آلان كاسبيار
التخطيط السياحي	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ جـ)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دور كاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
الكمبيوتر في مجالات الحياة	د· محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون · ر · بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخي عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلي	د· صالح رضا
التغذية في البلدان النامية	م · هـ · كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية	د· السيد طه ابو سديره
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس ، آلان هو
اخناتون	سيريل الدريد

	ارثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ٩ · هاريس
الدليل البيبليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى آرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
	ميكائيل ألبى
الانقراض الكبير	جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠	جاك كرابس جونيور
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
العثمانيون فى اوربا	بول كونر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار واعداد صبرى الفضل
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
سقوط المطر	نادين جورديمر وآخرون
صناع الخلود	موريس بيربراير
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	احمد الشنوانى
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
الكنائس القبطية (٢ جـ)	الفريد · ج · بتلر
ترانيم زرادشت	اعداد · د· فيليب عطية
النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد مرى
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
رحلات فارتيما	الحاج يونس المصرى
التاريخ من شتى جوانبه ٣ جـ	ستيفن اوزمنت
مصر الرومانية	نفتالى لويس
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السينما العربية من الخليج الى المحيط	اعداد مونى براح وآخرون

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٢٣٨٦/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3689 — 1

استـــــــدراك

الصفحة	السطر	الخطـــا	الصواب
٧	١٧	ومقالات علم	ومقالات ومحـاضرات عن الفلسـفة والمنـطق والتربية والاجتماع وعلم
١٨	٢١	عظـام	عظامه
٢٢	٢٦	بعضـا	بعضا ٠
٢٣	١٨	السـلطان	السلطات
٢٤	٢٥	(حكم	حكم
٢٥	١٠	يكوم	ويكرم
٢٩	٧	أن	أنه
٣١	٢٤	٠ وفى	٠ وفى
٣٣	٢٤	حبدا	جدا
		ونينيقا	ونينيفـا
٣٤	١٢	City tate	City state
٤٧	١	الا٦	أولا
٥٣	١٩	بها حد	بها فى حد
٧٩	الأخير	منـا	منها
		وكل منا	وكل منها
٨٥	٢٦	كوينزبرى	كوينزبرى (٣٠)
٨٦	٢٥	يستطع	يستطيع
٨٨	١٢	اذ	اذا
	٢٨	وظيفة	ووظيفة
١٠٠	الأخير	العلاقات	العـلامات
١٠٦	٤	الرقى	الرقى
١١٢	٢	هندى يعيش	هندى كان يعيش
١١٣	١٥	واعدام	واعدم ٠

يحاول المؤلف برتراند راصل وشهرته (راسل) تحديد الصلاحيات اللازمة للسلطة وتلك اللازمة للفرد فى ظروف العالم الحديث من منطلق أن للإنسان ملكات ودوافع تبحث عن التنفيس والإبداع، وان السلطة تسعى لتحقيق الأمان والاستفزاز وينتهي الكتاب بنبرة متفائلة بعد أن أبرز كل مشاكل المجتمع الحديث اقتصاديا وسياسيا وصناعيا وإداريا.

برتراند راصل (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠) أديب وفيلسوف وعالم منطق ساهم فى تطور المنطق الرياضى الحديث وقد كتب العديد من الأعمال الفلسفية عن مشكلات العلم الطبيعى ويعد راصل بحق أكبر ممثل بارز للوضعية الجديدة المحدثة، وكان راصل فى السنوات الأخيرة من حياته مساهما فعالا فى حركة نزع السلاح العام خدمت مقالاته وخطبه ضد الحرب والدعوة للسلام قضية التقدم الإنسانى.والمترجمة أستاذة ورئيسة قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بجامعة عين شمس وجامعة القاهرة وجامعة عبدالعزيز سابقا.

٢٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب